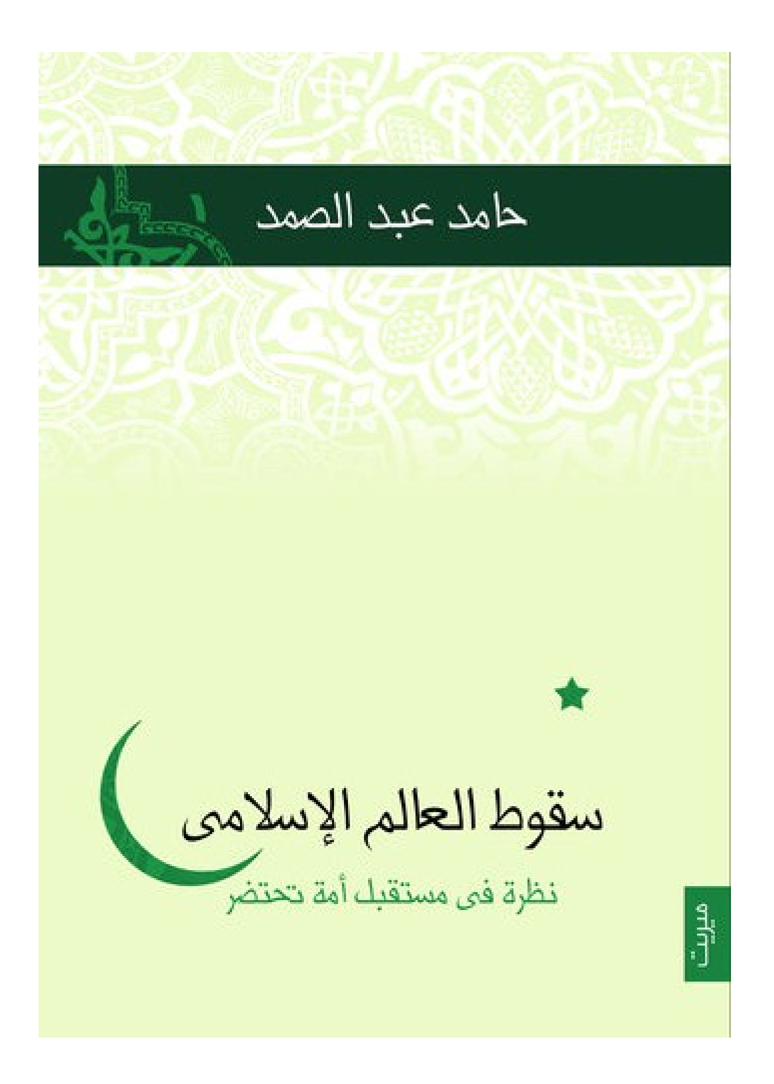


سقوط العالم الإسلامى

نظرة فى مستقبل أمة تحتضر

حامد عبد الصمد

«إذا كان المرء لا يدرى إلى أى ميناء يريد أن يذهب، فإن كل ريح تهب عليه لا تناسبه».

فرانسيس بيكون

إهداء...
إلى روح نصر حامد أبو زيد

مقدمة..
أو الشرق يحترق

قبل عشرة أعوام كنت أدرس العلوم السياسية بإحدى جامعات ألمانيا. لم تسر الدراسة فى البداية على ما يرام، وبدأت مشكلات الهوية والعقيدة تلاحقنى وتكدر على حياتى فى غربة الشمال الباردة. فجأة تحول ذلك الطالب المصرى الذى جاء إلى ألمانيا باحثاً عن العلم و الحرية إلى جندى من جنودٍ صراع الحضارات. ولكن الجندى كان بلا حول ولا قوة، ولم يكن يمتلك سلاحاً سوى تمجيد الذات ولعن الآخرين. نسيت مع مرور الوقت قضايا بلادى التى كانت تؤرقنى وصرت أركز على أمراض المجتمع الألمانى، أدرسها وأحللها. كان يعجبنى الكُتّاب الألمان الذين يجْلدون ذواتهم ويحاكمون بلادهم ويدينون رأسماليتها وسياستها الاقتصادية المتعسفة وتاريخها العنصرى الأسود. كانت مثل هذه الكتب تزيد حنقى على هذا البلد وتبرر عدم قدرتى على الاندماج فيه أو تحقيق أى نجاح يذكر.

وفى أحد الأيام سقط فى يدى كتاب قديم ظننت أنه كنز هائل يحمل نبوءة يتمناها الكثيرون فى بلادنا؛ إنه كتاب «سقوط الغرب» للفيلسوف والمؤرخ الألمانى «أوزفالد شبنجلر» الصادر عام 1918، الذى يسرد فيه الأسباب التى يرى أنها ستؤدى إلى انهيار الحضارة الغربية. وجدتنى ألتهم الصفحات الأولى من الكتاب تملؤنى الشماتة والترقب، ولكننى ما إن فرغت من قراءة المقدمة الطويلة جدا للكتاب حتى شعرت بالإرهاق. بغض النظر عن لغة الكتاب الصعبة للغاية، أرهقنى وصف «شبنجلر» لشيخوخة المدنية الأوروبية كحضارة فقدت بوصلتها وروحها وسقطت فى غياهب المادية والعنف.. وجدتنى متلبسا بسؤال نفسى: هل يصف الفيلسوف الألمانى حال حضارته فى بداية القرن العشرين أم حال حضارتى فى بداية القرن الحادى والعشرين؟ ألا ينطبق ذلك الوصف أيضا على حال العالم الإسلامى المعاصر؟

واصلت القراءة حتى وصلت إلى هذه الجملة: «وفى النهاية ستنطفئ نار الحضارة، ولكنها ستحاول أن تستجمع ما تبقى لها من قوة فتتذكر أمجاد ماضيها الأول.. ستحاول الرجوع إلى طفولتها، ولكنها فى طريقها ستفقد قدرتها على السير ورغبتها فى الحياة فتسقط منهكة ويائسة فى حِجر أمها، ثم ستحاول الفرار إلى ظلمة رحم الأم، فينتهى بها المطاف إلى المقبرة».

رأيت أمامى حضارة إسلامية تتنفس بصعوبة وهى تقف عند مفترق الطرق ولا تدرى إلى أين المصير. الدنيا كلها ترى أعراض المرض على وجهها، ولكن المسلمين لا يزالون يكابرون ويلومون الناس جميعا إلا أنفسهم. رأيتهم يفرون من واقعهم الحالى إلى مغارات ماضٍ ولى فيحلمون بغزو العالم من جديد بسيوف من خشب وشعارات من سراب.

لم أشعر بشماتة فى الغرب وأنا أقرأ كتاب «شبنجلر»؛ ولكنى شعرت بغضب وصداع جعلانى أنحى الكتاب جانبا دون أن أتم قراءته. أدركت للمرة الأولى أن تصورى لحضارتى ليس إلا فقاعة أختبئ فيها من خزى الواقع، وكذبة أهوّن بها علي نفسى مرارة قلة الحيلة. منذ ذلك اليوم صرت أكره «شبنجلر» وكتابه وألمانيا معاً.

وبعد مرور عشرة أعوام أتتنى الشجاعة مرة أخرى لإعادة قراءة «سقوط الغرب»، ولكن بفهم آخر. حاولت أن أتبع نصيحة «شبنجلر» أنه على الإنسان أن يواجه سقوط حضارته بشجاعة ووعى، وألا يرى فيه السيئ فقط، لأنه لا توجد حضارة دامت إلى الأبد، وسقوط الحضارات ليس إلا سنة من سنن الحياة. ويبدو أن «شبنجلر» قرأ أعمال ابن خلدون جيداً، على الرغم من أنه لا يشير إليه فى كتابه. فهو يتحدث عن الحضارة كزهرة تنبت ثم تتفتح ثم تتهالك، وهو أقرب لتشبيه ابن خلدون للحضارة ككائن حى يمر بمراحل الولادة والشباب والشيخوخة. وهى مراحل مرت بها كل الحضارات بداية من الفراعنة والسومريين ومروراً بالإغريق والرومان وانتهاءً بالدولة العثمانية. ويقول «شبنجلر» إن المدنية ليست سوى المرحلة الأخيرة من الحضارة، حيث يسترخى السكان فى المدن فينطفئ لهيب الإبداع و تختفى الرغبة فى الكفاح بداخلهم، وهى أيضا نظرية طرحها ابن خلدون فى «علم العمران»، حين تحدث عن العصبية كأداة من أدوات الحرب. ويرى ابن خلدون أن العصبية تموت فى المدن.

ويرى «شبنجلر» أن المرحلة الأخيرة من الحضارة تتصف بالجمود فى كل مجالات الحياة، فيفقد الناس وعيهم بالتاريخ وتنتشر الفوضى الفكرية ويختفى الفن الحقيقى وتسود التسلية الرخيصة فلا يبقى فى تفكير الناس سوى الخبز واللعب. ولو أننا نظرنا خلف أقنعة التدين التى تغطى الوجه الحقيقى لحضارتنا الإسلامية المعاصرة لوجدنا أن هذه الظواهر التى يتحدث عنها «شبنجلر» تسيطر على مجتمعاتنا بصورة واضحة.

فقد انتشرت عندنا ثقافة الاستهلاك الأعمى وتجاهل البيئة، وأصبح الخبز والتسلية هما شغلنا الشاغل، حتى صارت نتيجة مباراة كرة قدم بين مصر والجزائر أهم عندنا من مصير بلادنا السياسى. صرنا نستورد المنتجات الغربية ولكننا نرفض الروح التى أنتجت تلك الأشياء وهى روح الحرية الفردية والبحث والمراجعة

ومحاسبة الذات وحماية البيئة.

بُنيت الحداثة على خمسة أعمدة: العلم، والإنتاج، والاستهلاك، والقوة العسكرية، وأفكار حركات التنوير الأوروبية. ويبدو أن معظم البلدان الإسلامية قد استعارت فقط مبدأى الاستهلاك والتسليح وأهملت ما تبقى من دعائم المدنية الحديثة فتهالكت وشاخت وصارت لا تقدم للبشرية شيئا يذكر.

إن ما نراه اليوم فى عالمنا الإسلامى ليس صراعا بين الحداثة والتراث، كما يزعم البعض، ولكنه حالة احتضار للثقافة العربية والإسلامية التى لم تعد قادرة على طرح إجابات حقيقية لأسئلة العصر الملحّة. هى حالة من الارتباك والتشنج الفكرى أودت بالبعض منا إلى الانفصام، وبالبعض الآخر إلى اليأس، وبالآخرين إلى العنف والتطرف. إنها حالة من اليتم الثقافى والفقر الروحانى نحاول أن نخبئها خلف التدين الزائف أو الصراخ المدوى على قضايا تافهة وصورية. الدين الإسلامى يختفى تدريجيا من القلوب والضمائر، وصار لا يظهر سوى فى اللحى والشعارات. فإن من يصرخ باسم ربه فى الطرقات وعلى الفضائيات قد فقده فى وجدانه منذ زمن. كل هذه دلائل واضحة على السقوط الفكرى للعالم الإسلامى الذى ينذر بسقوط مادى وشيك.

فى الغرب ينخدع الكثيرون بأسلمة الشوارع وصراخ المتطرفين فى بلادنا فيعتقدون أن الإسلام يزحف بقوة نحو أوروبا ليحتلها ويُأسلمها. أما نحن فنرى أن الغرب هو الذى يطل علينا دائما بسفنه الحربية ليحتل أراضينا ويدنس مقدساتنا. إذا قرأ الغرب تاريخنا معه فلا يتذكر سوى غزو الأندلس وهجمات البربر والزحف العثمانى على أوروبا، أما نحن فلا نتذكر سوى الحروب الصليبية والاستعمار. وإذا نظر الغربيون إلى التاريخ المعاصر تجدهم يبدأون بأحداث الحادى عشر من سبتمبر، أما نحن فنبدأ باحتلال فلسطين والعراق. ومع أن جميع تلك الأحداث حقيقية وثقها التاريخ، فإن قراءتنا لها سواء فى الشرق أو فى الغرب مغلوطة أو على الأقل منقوصة. فمشكلتنا عندما نقرأ التاريخ أننا لا نرى إلا أنفسنا ولا نواجه سوى مخاوفنا. إذا قرأنا التاريخ نفضل أن نعظم ذواتنا ولا نرى فى الآخر إلا شيطانا بلا رحمة، عكسنا تماما أو عكس ما نحب أن نكون.

العالم الإسلامى لا يشعر بالفتوة ولكن بقلة الحيلة. فلا نحن تصالحنا مع المدنية الحديثة وروحها، ولا نحن عدنا إلى العصبية العربية القديمة التى كانت قادرة على تعبئة الفرسان وتجييش الجيوش. صارت مدنيتنا فى بطوننا، وجيوشنا فى حناجرنا. نعيش حالة من الجمود الفكرى والسياسى فى عصر العولمة الذى يحتاج المرونة، وتدهور تعليمنا فى عصر العلم، وتفاقمت الكوارث البيئية والجوية لتهدد مستقبل الاقتصاد فى الدول الإسلامية بل وتهدد مياه الشرب. هذه هى الأسباب التى تجعل نبوءة سقوط العالم الإسلامى ليست مجرد ضرب من ضروب قراءة الكف، بل نظرية لها أبعاد تاريخية واجتماعية وسياسية.

ومن الممكن، إذا تخلينا عن العنجهية و«النفخة الكذابة»، أن نرى فى هذا السقوط فرصة طيبة لبداية جديدة. فسقوط بيت قديم لا يعنى نهاية الحياة بل إمكانية لبناء بيت آخر على أساسات أخرى تتناسب مع روح العصر ومتطلباته. وبذور العصر الجديد موجودة فى بلادنا، فإذا نظرنا إلى مصر وإيران على سبيل المثال سنجد، إلى جانب النظم القديمة المتآكلة أيضا، روحا شبابية جديدة تطمح للتغيير والتجديد. إن صراع الحضارات لم يعد نبوءة بل صار واقعا ملموساً. ولكن هذا الصراع ليس قائما بين الشرق والغرب فقط كما يرى «صامويل هنتنجتون» ولكنه صراع بين الشرق والشرق أيضاً.. بين روح التغيير وروح الجمود داخل البلدان الإسلامية ذاتها. آلاف الشباب قرروا ترك الهيكل القديم والبحث عن حلول فردية تناسب طموحاتهم وضروريات حياتهم. ولكن الهروب من نظام قديم يتطلب بنية تحتية جديدة قائمة على أسس سليمة وراسخة.. وإذا لم تتوفر تلك الأسس لهؤلاء الشباب فسوف تهدر طاقاتهم وربما تنتهى إلى عنف وفوضى. القاهرة وطهران وغيرهما من العواصم الإسلامية صارت مسارحاً لهذا الصراع الذى ستقرر نتيجته مستقبل أمة بأكملها.

وهذا الصراع بين قوى الإصلاح وقوى الأصولية ليس جديدا فى العالم الإسلامى، بل يرجع إلى القرن الثامن الهجرى حيث دار الجدل بين المعتزلة وأهل السنة حول طبيعة القرآن. وتكرر الأمر فى الأندلس فى القرن الثانى عشر بين فكر ابن رشد العقلانى وفكر الغزالى السلفى. وفى نهاية القرن التاسع عشر جاء الإمام محمد عبده بأفكار تنويرية جديدة تساعد على تصالح الدين مع المدنية الحديثة. وكان من بين طلاب محمد عبده كل من رشيد رضا (السلفى)، وعلى عبد الرازق (التقدمى). وإذا نظرنا اليوم إلى الخطاب الدينى المعاصر لوجدنا الكثير من فكر رشيد رضا والقليل جدا من فكر على عبد الرازق.

إذن فالمشكلة ليست عدم وجود حركات إصلاحية، وإنما لب القضية أن أفكار الإصلاح كانت تواجه دائما معارضة شديدة من التيار المحافظ. وكانت المشكلة دائما أن الإصلاحيين لم يخوضوا المعارك الدينية والفكرية حتى النهاية، وكأنهم لم يكونوا يثقون فى أنفسهم بقدر يجعلهم يقفزون فوق أسوار الممنوعات الفكرية. وكان المثقفون دائماً يساندون الإصلاحيين فى البداية ثم يتخلون عنهم فى اللحظات الحرجة ويتركونهم فريسة لدعاوى التكفير والخيانة. كل تيار إصلاحى فى العالم الإسلامى ينتهى دائماً أمام أسوار السلفية المنيعة أو يتحطم على صخرة السلطة المتعجرفة، لأن كلاً من السلفيين وأصحاب السلطة يستندون إلى المحرمات والخطوط الحمراء فى الفكر: لا مساس بالقرآن، لا مساس بالرسول، لا مساس بالعقيدة، لا مساس بما عُلم من الدين بالضرورة، لا مساس برموز الدولة، لا مساس بسمعة الوطن. لذلك فإن السلفية والسلطة ينتصران دائما فى نهاية كل صراع فكرى أو سياسى لأنهما يمارسان نوعاً من أنواع حرب الاستنزاف مع

أصحاب الفكر التقدمى فيتركانهم يصرخون ويتخبطون حتى يفقدوا طاقتهم. السلفية تكرر الحجج القديمة نفسها وتتحصن بالنصوص الدينية التى لا مساس بها. أما السلطة فتطعن أعداءها بسهام مسمومة وتتركهم ينزفون ببطء ويموتون فى صمت. ولذلك فإننا نلاحظ وجود تحالف غير مكتوب بين الحكام وبين أنصار الفكر السلفى فى كثير من البلدان الإسلامية، لأن لهما الهدف نفسه، وهو إسكات كل صوت يدعو إلى الانفتاح والتغيير. تتظاهر الحكومات بمحاربة التطرف فى حين أن سياساتها تدعم التعصب. ويتظاهر الأصوليون بمحاربة أصحاب السلطة فى حين أنهم يساندوها عن طريق عرقلتهم لمساعى الإصلاح الفكرى. وهناك ظاهرة جديدة نلاحظها وهو دخول السلطة والإسلاميين فى سباق أيهما أكثر تديناً وتقوى لله، والخاسر فى هذا السباق ليس أحدهما، بل أنصار التغيير.

لذا فإن الإصلاح الفكرى والدينى والسياسى الحقيقى من وجهة نظرى لن يأتى إلا إذا اتفقنا على أنه لا توجد محرمات ولا ثوابت فى الفكر، ولا آلهة على الأرض. علينا أن نتفق على أن كل شخص وكل شىء مهما كانت قدسيته يمكن وضعه فى ميزان العقل؛ أو حتى النقد. ولست أدرى لماذا يخاف المتدينون من نقد بعض مفاهيم الدين، فإذا كان المرء ثابتاً فى عقيدته وفاهماً لدينه فلا داعى للخوف من الانتقاد، وإذا كان لا يفهم الكثير منه وليس على يقين من أمره فإن النقد والنقاش يساعدان على توضيح الرؤية وتصحيح المفاهيم. وبالمثل فإن نقد الحكام هو معيار هام من معايير الديمقراطية، وهذا النقد لا يطيح بالحكام فى الغرب؛ ولكنه يؤكد للشعب أنهم ليسوا آلهة. وعلاقة الشعب المتوازنة وغير المتشنجة بالمقدسات وبأولى الأمر هى أساس أى مجتمع مدنى متقدم.

ولكن أسئلة الإصلاح الدينى يجب ألا تبدأ دائما من نص القرآن وتنتهى عنده؛ بل عليها أن تصل إلى خطاب «ما بعد القرآن». فالإرهابيون يبررون أعمالهم الإجرامية بنصوص القرآن.. والإصلاحيون يحاولون أن يفعلوا الشىء نفسه بالبحث بين آيات القرآن عما يبرر التسامح والتعايش السلمى، ولكن فى كلتا الحالتين نصل إلى نتيجة أن القرآن وحده هو الذى يحدد أطر الحياة وهو وحده القادر على طرح إجابات لأسئلة العصر حتى فى القرن الحادى والعشرين. وخطاب «ما بعد القرآن» يعنى ألا نحمل القرآن فوق طاقته، وأن نبحث لحياتنا اليومية عن إجابات أخرى قائمة على إعمال العقل والتفاوض بين البشر، والحلول الوسط. والشىء نفسه ينطبق على الإصلاح السياسى، فالقضية ليست فى المقام الأول تغيير مواد الدستور وقواعد الانتخابات، ولكن فهم عامة الناس منطق الديمقراطية واستعدادهم للمشاركة السياسية هو الذى سيؤدى للتغيير.

وجه إلى أحد المستمعين بمحاضرة مفتوحة لى بجامعة ميونيخ سؤالا محرجاً جداً ذات مرة: ماذا سيفقد العالم لو اختفت جميع الدول الإسلامية مرة واحدة؟ فكرت كثيرا ولم أجد جوابا يتناسب مع غرض السائل. وفى النهاية أجبته أن العالم سيفقد

البترول وأماكن جميلة للسياحة وأكثر من مليار شخص يستهلكون المنتجات الغربية وينشطون الاقتصاد الأوروبى والصينى.

ما أراد السائل أن يوصله لى هو: ماذا يقدم المسلمون للعالم اليوم فى مجالات العلم والإنتاج والثقافة والفنون؟ وليس من الصعب أبدا الإجابة عن هذا السؤال بـ: لا شىء يذكر. ولو استمر الأمر على هذا النحو فسيكون سقوط العالم الإسلامى سُنة من سنن الكون ونبوءة تتبأ بها القرآن فى سورة الرعد «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ».

ما أحاول أن أقدمه فى هذا الكتاب هو نظرة إلى تاريخ السقوط الإسلامى وتحليل سياسى لأبعاده ونتائجه وما يعنى ذلك للعالم لو سقط جسد ثقيل مثل الجسد الإسلامى فى قلبه. بالطبع فإنه من الصعب الحديث عن عالم إسلامى واحد؛ فهناك تباين واضح بين المغرب وإندونيسيا وبين دبى والسنغال. ولكنى لا أتحدث عن العالم الإسلامى ككيان سياسى وإنما كحضارة وككتلةٍ ثقافية تجمعها أفكار ومبادئ متقاربة. وأرى أن بعض هذه الأفكار تقف حاجزاً بين العالم الإسلامى وباقى البشرية؛ فكل الإحصائيات العالمية والمحلية تؤكد أن العالم الإسلامى صار فى ذيل الأمم، من حيث تطوير التعليم والبحث العلمى وحماية حقوق الإنسان والمرأة والبيئة.. وكلها عوامل تؤدى إلى العزلة عن العالم وضعف الاقتصاد واستحكام الدكتاتورية. حتى إندونيسيا وماليزيا وتركيا التى كنا ننظر إليها كنماذج ناجحة فى مجالات الاقتصاد والتعليم والديمقراطية بدأت فى التراجع عن خطواتها التقدمية وسمحت لقوى المحافظين والسلفيين بفرض أفكارها. حتى فى هذه الدول الثلاث يزحف الإسلام السياسى نحو السلطة ويحاول عرقلة الخطوات الديمقراطية.

ولكن الدول العربية بالتحديد هى أقرب دول العالم الإسلامى للسقوط. البشر والتصحر والاستهلاك والتزمُّت الفكرى فى زيادة مستمرة؛ بينما الإنتاج والموارد الطبيعية ومستوى التعليم فى انحدار ملحوظ. آبار البترول تقترب من الجفاف والتغيرات البيئية تهدد مستقبل السياحة والشواطئ كما تهدد مستقبل الزراعة والمواد الغذائية. كل ذلك ينذر بحدوث فوضى ومجاعات لن تقدر الحكومات العربية على مواجهتها. فى الوقت ذاته يزداد التطرف الدينى وعدم التسامح مما سيؤدى إلى صراعات أخرى. ما حدث فى الجزائر والصومال والسودان قد يكون مصير مصر والمغرب والأردن وسوريا قريبا.

لو قارنا العالم الإسلامى المعاصر بسفينة «تايتانيك» قبل غرقها لوجدنا تشابهاً كبيرا بينهما. السفينة الإسلامية تقف وحيدة ومكسورة وسط محيط بارد ولا تدرى كيف النجاة. مسافرو الدرجة الثالثة ينامون فى جحورهم ولا يعلمون شيئاً عن المصيبة القادمة. الأغنياء يحاولون الفرار فى قوارب النجاة القليلة ويريدون فى الوقت ذاته أن يربحوا من الكارثة. رجال الدين يكررون نفس الطلاسم والشعارات ويطالبون الناس بالصبر. أما من يسمون أنفسهم بالمصلحين فيذكروننى بعازفى

الموسيقى على متن «تايتانيك» الذين واصلوا العزف حتى غاصت السفينة فى البحر. كانوا يعزفون ويعزفون رغم إدراكهم أن أحداً لا ينصت إليهم على الإطلاق.

ولكن، هناك فرق واضح بين السفينتين. فبينما دخلت «تايتانيك» البحر جديدة وعملاقة، فإن السفينة الإسلامية قديمة ومهشمة منذ قرون. كانت محملة بما يزيد على طاقتها وتسير بلا بوصلة. ولأنها لم تدر إلى أين تريد أن تذهب كانت كلٍ رياح البحر غير مناسبة لها. وكان احتكاك بسيط بجبل ثليج اسمه «الحداثة» سبباً كافيا لتفقد السفينة الإسلامية توازنها. والآن نراها تقف مكسورة تملؤها مياه البحرِ، ومع ذلك يصر معظم ركابها على أنها لن تغرق لأنهم يرون فى إبحارها أمراً إلهياً.

المسلمون استنفذوا رصيدهم الحضارى والثقافى ويعيشون اليوم على ميراث لم يعد يسمن ولا يغنى من جوع. ولو كان العالم الإسلامى شركة أو مؤسسة لأفلست منذ زمن. وما يحتاجه هذا العالم الإسلامى اليوم ليس المكابرة والعنجهية بل عملية إشهار إفلاس مقننة. يحتاج المسلمون لعملية جرد يتخلصون بها من حقائب السفر التى تعرقل رحلتهم نحو الحداثة والتطور. يحتاجون إلى التخلص من نظرتهم التمجيدية لذواتهم وحضارتهم وإلى إعادة نظرتهم إلى المرأة ودورها، للتاريخ وأفخاخه، إلى الدين ومحدوديته، إلى المثل الأعلى ومفهوم العدو.

فى دراسة للمؤرخ الألمانى «دان دينر» بعنوان «مفقودون فى الدين» يلوم المؤلف على العالم الإسلامى أن الفكر واللغة لا يزالان رهينين للفكر الدينى ولغته، مما يجعل فكرة المجتمع المدنى بعيدة عن واقعهم. وهى فكرة طرحها أيضاً الشاعر السورى «أدونيس» خلال زيارته لإقليم كردستان العام الماضى حين لام على العرب أن لغتهم صارت جامدة وأن ثقافتهم صارت بيروقراطية تديرها الدولة، وصاروا لا يقدمون أى جديد للعالم، ولذلك فإنهم سينقرضون عما قريب.

ولكن الباحثين الفرنسيين «يوسف كورباج» و«إيمانويل تود» يتنبآن بثورة تغيير كبيرة يشهدها العالم الإسلامى خلال السنوات القادمة. قام الباحثان بعمل إحصائيات موسعة فى جميع أركان العالم الإسلامى وتوصلا لنتيجة غريبة؛ وهى أن معدلات الولادة انخفضت بشكل ملحوظ فى جميع الدول الإسلامية فى العشرين سنة الماضية، فى حين زادت نسبة التعليم بين البنات والأولاد على السواء. ويقول الباحثان إن التعليم يجلب معه فى البداية دائما ظاهرتين متوازيتين: روح التطور والرغبة فى التغيير من ناحية، والاضطراب النفسى وعدم الرضا بين الشباب من ناحية أخرى. ومن وجهة نظر «كورباج» و«تود» فإن التعليم هو المسؤول عن التطرف بين شباب المسلمين، لأن الوعى بالقضايا الاجتماعية يزيد بين الشباب، ولكنهما يؤكدان أن التطرف ليس إلا ظاهرة مؤقتة ستنتهى قريبا.

أما هذا الكتاب «سقوط العالم الإسلامى» فلا يقدم دراسة إحصائية؛ بل نظرة

تحليلية للحالة الفكرية والتطورات السياسية والاجتماعية فى العالم الإسلامى. سيتطرق الكتاب لنظرة المسلمين إلى التاريخ وعلاقة الدين بالسلطة، كما سيناقش قضايا التعليم والخطاب الدينى ومشكلات البيئة التى تهدد العالم الإسلامى. وستكون مصر فى بؤرة النقاش؛ حيث إنها كانت دائما مسقط رأس معظم حركات التطوير والتنوير كما كانت أيضا صاحبة السبق فى إنتاج الفكر المتعصب والحركات الإرهابية.

ما أريد أن يتفهمه القارئ هو أن هدفى ليس ذم الإسلام ولا الدفاع عنه فى هذا الكتاب؛ وإنما أحاول التعامل مع كيان مريض اسمه العالم الإسلامى من وجهة نظر نقدية تحليلية. والمريض لا يشفى بإغلاق عينه عن الحقيقة وتجاهل وصفات الدواء، بل بمواجهة الذات وإدراك أين يكمن أساس المرض. المريض يحتاج أن يعترف أنه مريض أولا!

ديناميت اسمهُ التاريخ..
أو أرجوك لا تأخذ عدوى منى!

أعيش فى مدينة ميونيخ الألمانية منذ عامين تقريبا، ومن أجمل الأماكن التى تعجبنى هناك هى حديقة القرية الأوليمبية، وبالتحديد جبل جميل جدا يتسلقه زوار الحديقة ليستمتعوا من فوقه بنظرة «بانورامية» على كل المدينة. هو ليس مثل جبل الأوليمب ولا قمة إيفرست، بل هو هضبة صغيرة لا تتعدى فى علوها مائة متر. ولكن صارت لهذا الجبل عندى دلالة رمزية كبيرة، فهو جبل صناعى بناه سكان ميونيخ من حطام المنازل الناتج عن تدمير المدينة فى الحرب العالمية الثانية. صارت هذه الهضبة تجسيدا لمعنى الحضارة بالنسبة لى.

كنت أبحث عن تعريف جديد لمعنى الحضارة، لأن تعريف «ول ديورانت»

مؤلف «قصة الحضارة» لم يكفنى، حيث إنه يربط الحضارة بالمدنية، وبالتالى بالتقدم التقنى والعلمى. وهو تعريف أقرب إلى الكلمة العربية التى تعنى «الإقامة فى الحضر» أو التمدن. فى حين يرى أرسطو أن الحضارةٍ هى أيٍ شىء لم تخلقه الطبيعة، أى كل شىء خلقه الإنسان بيديه سواء إيجابياً أم سلبياً. وقد وهبتنى هضبة القرية الأوليمبية بميونيخ تعريفا جديدا وخاصا جدا؛ وهو أن الحضارة هى قدرة الشعوب على خلق شىء جميل من أنقاض شىء قبيح والقدرة على عقلنة التاريخ. كان بإمكان الألمان أن يتباكوا على أطلال مدن ميونيخ ودريسدن وهامبورج وبرلين التى دمرتها الحرب، وأن يصبوا لعناتهم على الحلفاء، ولكنهم أدركوا سريعاً أن البكاء والعداء لا يفيدان، ففتشوا عن أسباب مأساتهم الحقيقية ثم شمروا عن سواعدهم وأعادوا بناء دولتهم فى غضون سنوات قليلة حتى صار اقتصادهم أقوى من اقتصاد فرنسا وإنجلترا اللتين انتصرتا على ألمانيا فى الحرب.

أعلم أن تشبيه ألمانيا بالعالم الإسلامى ربما يستفز الكثيرين وقد يجلب علىّ الاتهام المعهود بأنى أتغزل فى الغرب وأُبهر به. ولعلى أهدئ من روع القارئ، حين أقول إنى لا أرى الغرب كمجتمع مثالى، ولدى انتقادات كثيرة للثقافة الغربية أدونها حين أكتب باللغة الألمانية، ولكن ليس هذا موضوعنا هنا.

فلننسَ ألمانيا والغرب إذن.. ولنذهب إلى تايوان، وبالتحديد إلى الجامعة التايوانية. بنى اليابانيون هذه الجامعة عام 1928 حين كانوا يحتلون تايوان، وكانت هذه هى الحسنة الوحيدة التى فعلها الاحتلال اليابانى، فلم تمض سنوات حتى ارتكب اليابانيون أفظع المجازر والجرائم وتركوا تايوان خاوية على عروشها. وعلى عكس ألمانيا واليابان، فإن تايوان لم تتلق أية معونات من الغرب لإعادة بناء بلدها بعد انتهاء الحرب، بل دخلت فى صراع جديد مع قوة عظمى جديدة هى الصين حول استقلالها. ومع ذلك تمكن التايوانيون من خلق مجتمع مدنى ديمقراطى له اليوم مكانته فى مجال الاقتصاد. وكان التعليم هو العمود الفقرى لإعادة بناء هذا البلد. لم يدمر التايوانيون الجامعة اليابانية انتقاما من وحشية اليابان فى الحرب؛ بل طوروها حتى صارت اليوم على قائمة أفضل جامعات العالم، بل وصارت تتفوق على كل جامعات اليابان. وهنا تكمن مشكلة العالم الإسلامى فى التعامل مع التاريخ. فليست لدى المسلمين نظرة براجماتية عملية فى التعامل مع جروح الماضى، وإنما تغلب عليهم النظرة العاطفية المتشنجة التى تميل للمغالاة والتهويل.

قبل عدة أعوام نشر الكاتب والروائى حمدى أبو جليل مقالاً بعنوان «دعوة للاستسلام» لام فيها على العرب ثقافة المقاومة التى لم تحل قضية واحدة من قضاياهم بل زادتها تعقيدا. واقترح أبو جليل على العرب، بأسلوبه الساخر المعهود، الاستسلام للغرب على غرار ألمانيا واليابان، لعل وعسى يقف العرب على أقدامهم من جديد كما حدث لألمانيا واليابان بعد تدميرهما فى الحرب العالمية الثانية. ولكن الاتهامات انهالت على أبو جليل تصفه بالانهزامية والتخاذل. وكانت

معظم الاتهامات من بين صفوف المثقفين والعلمانيين الذين رفضوا تشبيه العالم العربى باليابان وألمانيا؛ لأن هذين البلدين هما اللذان بدآ بالعدوان على الحلفاء. بل شبه أحد منتقدى أبو جليل العالم العربى بفرنسا أثناء الحرب والتى قاومت الاحتلال النازى لأراضيها بضراوة فامتدحها الكثيرون لذلك.

القضية - كما أرى - ليست دوافع المقاومة ولكن جدواها واستراتيجيتها. فإذا كانت المقاومة تجلبِ الحقوق المسلوبة وتطور المجتمعات فلا بأس بها. ولكن أن تصير المقاومة هدفاً فى حد ذاتها، وأن تصير أبدية بلا نهاية، فهذا هو المرفوض. إن حقن الأطفال فى المدارس والمصلين فى المساجد بكراهية عدو لا تطاله أيديهم تسلب مجتمعاتنا طاقات نحتاجها للتغيير، وتحول انتباهنا عن قضايا أخرى أخطر وأهم. الهضبة الأوليمبية والجامعة التايوانية مجرد مثالين لما يجب أن يحدث فى عالمنا العربى والإسلامى، وهو نزع فتيل ديناميت التاريخ والتحرر من أعباء الماضى حتى نسير للأمام.

من يلقِ نظرة على كتاب مادة التاريخ التى يتم تدريسها لطلاب الثانوية العامة فى مصر سيكتشف بسهولة تناقضات الأمة الإسلامية المعاصرة. فى حين يتم النظر إلى الذات ككيان كامل وعظيم، يتم تصوير «الآخرين» كعدوانيين ولا أخلاقيين. كتاب مادة التاريخ المدرسى أشبه بقصيدة عربية قديمة تبدأ بالبكاء على الأطلال ثم بوصف محاسن الحبيبة ثم مدح قبيلة الشاعر وذم أعدائها. الجزء الأول من كتاب مادة التاريخ المدرسى يعالج عظمة العرب وما حققوه فى مجالات العلم والفلسفة والطب منذ مئات السنين. أما الجزء الثانى فيعالج الأخطار التى هددت الحضارة الإسلامية من الحروب الصليبية والاستعمار وإسرائيل. العربى فى هذا الكتاب دائماً مسالم وخلوق، فى حين أن الآخر الغربى عدوانى ومتعجرف.

فى فصل الحروب الصليبية نقرأ وصفا وكأنه مشهد من فيلم رعب يسرد فيه الكاتبٍ كيف اقتحم الصليبيون المسجد الأقصى وقتلوا فى ساحته سبعين ألف مسلم رجالاً ونساءً وأطفالاً حتى صار الدم «للركب». بغض النظر عن أن ساحة الأقصى لا تتسع لأكثر من عشرة آلاف مسلم، وأيضا بغض النظر عن أن جرائم الصليبيين اعترف بها كتاب التاريخ الأوروبى أنفسهم، فإن هذه الطريقة لعرض التاريخ لا تساعد الطلاب على فهم ما حدث؛ بل تحرك بداخلهم مشاعر البغض والكراهية. ومن الطريف فى الأمر أن كلمة «الصليبيين» لم تكن موجودة أيام الحروب «الصليبية»، فكان المسلمون يطلقون عليهم آنذاك اسم «الفرنجة»، وهو مصطلح عرقى وليس دينيا. أما فى العصر الحديث فيحاول المسلمون أن يصبغوا الصراع بصبغة دينية، وهو ما يفعله الغرب أيضا، مما يشعل نيران صراع الحضارات أكثر وأكثر.

وفى الفصل التالى يصف الكتاب مشهداً شبيهاً حين اقتحم جنود نابليون الجامع الأزهر ودخلوه بخيولهم. وهكذا تترسخ فى أذهان الطلاب أن الغربى دائما رجل

يكره المسلمين ويريد قتلهم وتدنيس مقدساتهم. وفى حين يخصص الكتاب ثلاثا وخمسين صفحة للحروب الصليبية والاستعمار، لا نقرأ فيه سوى صفحة ونصف الصفحة فقط عن غزو التتار وتدمير بغداد عام 1258 م، على الرغم من أن الهجوم المغولى كان له أثر أكبر على نهاية العصر الذهبى الإسلامى. فقد دمر المغول المكتبات ونسفوا الكتب واختطفوا أمهر الحرفيين إلى آسيا الوسطى، مما عجل بموت العلوم وبتفشى التخلف. ولكننا لا نقرأ شيئا من هذا فى كتاب مادة التاريخ الرسمى، لأن التتار لا وجود لهم اليوم كقوة نكرهها ونلوم عليها تأخرنا وقلة حيلتنا.

هناك أيضا شىء آخر لافت للنظر فى كتاب مادة التاريخ؛ وهو أن هناك فجوة غير مشروحة فى الكتاب. حيث ينتهى الفصل السادس بآخر الحملات الصليبية عام 1291م ويبدأ الفصل السابع بالحملة الفرنسية على مصر عام 1798. أى أن هناك أكثر من خمسة قرون بلا عدوان ولا احتلال غربى، فأين كان العالم الإسلامى فى هذه الفترة؟ ولماذا لم يستغل هذه الفترة فى تحسين حاله بنفسه؟ أم أنه لا وجود لنا ولا قيمة دون العدو الذى يتربصٍ بنا الدوائر؟ ولماذا نسمى احتلال المسلمِين الأندلس وصقلية والقسطنطينية فتحاً، فى حين نسمى احتلال الغرب لنا عدواناً غاشماً؟

ويعالج الفصل الأخير من الكتاب الصراع العربى - الإسرائيلى فيبدأ بوصف يهود أوروبا كشعب خبيث عاش فى «جيتو» وجمع أموالا طائلة ثم أسس الصهيونية التى احتلت فلسطين فيما بعد. لا شىء عن المحرقة واضطهاد اليهود ولا عن إنجازاتهم فى مجال العلوم فى أوروبا، ولا عن اليهود المصريين الذين عاشوا قرونا فى مصر وقدموا لها الكثير فى مجالات الفن والثقافة. كل شىء مما قد يؤدى إلى تعاطف أو تفهم لليهود حُذف من كتاب مادة التاريخ حتى لا تضطرب الصورة التى يريد كاتب الكتاب أن يغرسها فى ذهن الطالب، وهى أن الآخر شرير دائماً ونحن الضحايا دائماً.

نظرة داخل كتاب مادة التاريخ اليمنى أو السورى أو السعودى سوف تصل لنفس النتيجة: الآخرون هم السبب. الغرب هو الشيطان الأكبر. العجيب فى الأمر أن معظم الحكام العرب حلفاء أقوياء للغرب يحافظون على مصالحه ويدينون له بالولاء ويتلقون منه الأسلحة والمعونات. ومع ذلك تحرص الأنظمة المستبدة على تصوير الغرب على أنه سبب كل بلاء فى بلادنا، كما يتم اتهام كل من ينتقد النظام أو يحاول الإصلاح بأنه جاسوس أو عميل غربى. الكتب المدرسية العربية تركز على خطايا الغرب لا على خطايانا نحن، ولا تشرح للطالب تاريخ الديمقراطية وفكر الحداثة، لأنها تريد أن تخلق حاجزاً بين تلك الأفكار والطلاب حتى لا يصير الغرب مثلاً أعلى لهم. الكتاب المدرسى يطلب من الطالب الولاء للزعيم لا إعمال العقل والتفكير الحر. التاريخ الرسمى يشغل الطالب بمحاربة طواحين الهواء حتى

لا يلتفت لمشكلات مجتمعه الحقيقية ولا يثور على أوضاعه.

ومع ذلك فقد تدخل الغرب بعد أحداث سبتمبر وطالب حلفاءه فى الدول العربية بتنقية الكتب المدرسية من كراهية الغرب، وقد وضع ذلك الأنظمة العربية فى حرج شديد. فطوروا المناهج بطريقة متعجلة وعشوائية، فحذفوا بعض الأجزاء وأضافوا أخرى تحث على التعايش مع الآخر والسلام، فى حين احتفظوا ببعض الأجزاء التي لا تزال تصفه بالعدو الغاشم. وهكذا أصبحت المناهج «المطورة» متناقضة جداً وتشتت الطالب.

فبعد أن أعلن السفير السعودى فى واشنطن خلو المناهج السعودية من الكراهية، فحصت جريدة الـ«واشنطن بوست» الكتب السعودية فى تقرير نشرته فى مارس 2006 أكدت فيه أن المناهج لا تزال عدوانية بل وخطيرة.

وطرح التقرير الأمثلة الآتية من كتب التربية الدينية (الأمثلة المقتبسة مترجمة عن التقرير وليست منقولة عن الكتب الأصلية):

من كتاب الصف الأول: «أكمل الجملة بواحدة من الكلمتين الآتيتين (الإسلام - النار): كل دين غير ---- هو باطل، وكل ما عدا المسلمين سيدخلون ----».
ومن كتاب الصف الرابع الذى تم إصلاحه يقتبس التقرير: «الإيمان الحقيقى يعنى الغلظة على الكفار والمشركين (....) ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لا يتخذ أعداء الله أولياءً»، (هنا استناد إلى آية قرآنية من سورة المائدة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»).
ومن الكتاب نفسه يقتبس التقرير: «القردة هم اليهود والخنازير هم النصارى».
ومن كتاب الصف الحادى عشر: «الجهاد هو محاربة الكفر والقهر والظلم. هذا الدين جاء بالجهاد وارتفع براية الجهاد».
من الطريف أن يعلم النظام السعودى طلابه أن الجهاد هو محاربة القهر والظلم. فلو فهم من كتب هذه الكلمات مغزى هذه المقولة لما كتبها، لأنه هكذا ينادي بالثورة على النظام السعودى نفسه الذى يعد من أكثر الأنظمة قهراً وظلماً، خصوصاً للنساء ولأصحاب الفكر الحر.

الكتاب المدرسى يمثل مؤشراً واضحاً لحالة الفكر فى مجتمع ما وكيفية رؤيته نفسه، فهو كحوض يتجمع فيه ما يعرفه المجتمع وما يحبه وما يكرهه، ثم تتم تصفية هذا الحوض على يد السياسات التعليمية التى تقرر ما تريد أن تلقنه للطلاب وما تريد إخفاءه عنهم. ثم يأتى المدرس الذى يتأثر ببيئته الاجتماعية وما يسمعه فى المسجد وعلى الفضائيات فيكمل الصورة. التعليم العربى مسموم بأمراض المجتمع الفكرية، فأى أداة يريد العالم العربى استخدامها للخروج من ورطته؟

أصحاب الكهف..
أو مشكلة من لا يرى إلا ظله

قصةِ الكهف التى يرويها أفلاطون فى الفصل السابع من كتابه «السياسة» تصف تماماً حالة الفكر فى العالم الإسلامى منذ قرون: مجموعة من البشر محبوسون فى كهف ومكبلون بقيود أمام حائط الكهف ووراءهم ضوء خافت فلا يرون إلا ظلالهم على الحائط. وإذا تحرك شىء خلفهم أو إذا تكلم أحد يعيد الحائط صدى الصوت فيبدو وكأن الظلال تتكلم إليهم. القيود تمنع أصحاب الكهف من أن يحركوا رؤوسهم فلا يرون من العالم إلا ما يمليه عليهم الحائط الذى أمامهم. والسؤال الذى أراد أفلاطون طرحه فى هذه القصة هو: ماذا سيحدث لو أن أصحاب الكهف تمكنوا من فك قيودهم واستداروا؟ حينها سيبهرهم الضوء ولن يروا الأشياء بوضوح لأنهم اعتادوا على لغة الظل. وستكون النتيجة أنهم سيعودون إلى الحائط طائعين ويواصلون مراقبة الظل كى يفهموا ما يدور حولهم.

عاش المسلمون لقرون طويلة فى عزلة عن باقى العالم لا يرون إلا ظلهم على الحائط، ومع ذلك فقد كانوا يِعتقدونٍ أنهم خير أمة أخرجت للناس، حتى جاء الأوروبى المتفوق عليهم مادياً وعلمياً ففتح كهفهم عنوة وواجههم بحقيقة العصر الحديث. لقد كان لقاءً غير متكافئ عندما رسى أسطول نابليون عند أبو قير. يحلو لنا أن نصور هذا اللقاء كغزو غاشم قابله المصريون بمقاومة شرسة لمدة ثلاثة أعوام حتى رحلت الحملة الفرنسية عن مصر. الحقيقة هى أن تلك المقاومة مجرد أسطورة، فقد اشترى نابليون بعض شيوخ الأزهر برواتب شهرية فوصفوه بأنه من أولى الأمر وأن طاعته من طاعة الله. أما ثورة المصريين فلم تأتِ إلا عندما رفع الفرنسيون الضرائب على الفلاحين والحرفيين، وقد أسهم رجال الأزهر فى تلك الثورة، ولكن بعض المصادر الفرنسية تقول إن بعضهم عاد للتعاون مع

الفرنسيين بعد ذلك. ولم يكن الدين الإسلامى ولا الأزهر يلعبان دوراً يذكر فى تلك الفترة سوى تحفيظ القرآن والدعوة للحاكم من على منابر المساجد سواء كان من الأتراك أو المماليك أو الفرنسيين. انتشرت الخرافات والخزعبلات وكاد الدين يختفى تماما لولا مجيء حملة نابليون. ويبدو أن مجيء العدو الأوروبى هو الذى يذكر المسلمين دائماً بأن لهم دينا، فانتعاش الفكر الدينى يأتى دائماً مع ظهور الغازى القادم من الجانب الآخر من البحر المتوسط: كان الأمر هكذا مع مجيء الفرنجة والاستعمار ومع احتلال فلسطين. فتُرى هل سيبقى الدين لو صرنا بلا أعداء؟ هل ستبقى الهوية؟

لم يكن مجيء الأوروبى الغازى كقُبلة الأمير للجميلة النائمة التى أيقظتها من سُباتها الطويل، ولكنه كان ركلة فى مؤخرتها أثارت غضبها فشرعت فى الصراخ. وظلت جميلة الجميلات تصرخ وتصرخ حتى يومنا هذا. لم يفسر المصريون مجيء الفرنسيين كبداية لعصرٍ جديد بل كصفحة جديدة من صفحاتٍ صراعٍ الشرق والغرب. سبَّب لقاء العرب بالأوروبيين المتفوقين «جُرحاً نرجسياً» كما يسميه الفيلسوف السورى جورج طرابيشى. وظل جرح الهزيمة هذا يؤرق العرب ويعكر عليهم صفو خيالاتهم بأنهم خيرة البشر. ومن ناحية أخرى كان مجيء الأوروبى دائماً يذكر الإصلاحيين فى بلادنا بضرورة التغيير ويذكر الأصوليين بضرورة التزمّت ومقاومة التجديد، وبذلك تكون المحصلة فى النهاية صفر أو تحت الصفر. الأصوليون ينتصرون فى النهاية لأنهم ليسوا بحاجة لإقناع غالبية الناس بوجهة نظرهم فهم يستخدمون اللغة التى يفهمها الجميع ويعودون إلى النصوص التى لا يستطيع أحد أن ينكرها. كل ما عليهم أن يفعلوا هو أن يعودوا إلى المربع الأول من التاريخ الإسلامى، إلى دولة الرسول وقوانينها، إلى الشريعة وأحكامها. مجيء الآخر كان دائما يستفز بعض المسلمين لمغادرة الكهف، ولكنه كان يستفز معظمهم للتشبث بالمغارة وظلالها. كان شعورهم بالضعف يولد الخجل، والخجل يولد الخوف، والخوف يقوى التمسك بالدين. وهكذا تتحول حالة الطوارئ وقلة الحيلة إلى رسالة سامية وعمل نبيل.

فى كتابه «الوجود والعدم» يعطى جان بول سارتر مثالاً آخرا لكيفية ميلاد الخجل. فهو يحكى قصة رجل يراقب مجموعة من الناس من خلال ثقب مفتاح أحد الأبواب. وطالما كان يراقب الآخرين لم يكن يشعر أنه يرتكب خطأ، بل إنه لم يكن حتى يشعر بذاته. ولكن حينما جاء شخص آخر من خلفه وأمسك به متلبساً بفعلته أحس بذاته وشعر بالخجل. وقد أمسك بنا الأوروبيون ونحن متلبسون بالتخلف، فتشنجنا ولم نقو على الاعتراف بالحقيقة. الآخرون دائماً هم الذين يولدون شعورنا بالخزى.. نظرات الآخرين هى الجحيم بعينه.

نظرات جنود نابليون وجنود الإنجليز إلى فلاحى النيل ونظرات جنود الفرنسيين إلى أبناء المغرب العربى كانت تملؤهم بالخجل والغضب. فتلك النظرات كانت

دائماً تشككهم فى أسطورة أنهم خيرة البشر. فكان المسلمون يحاولون تعويض عقدة النقص هذه بشعورهم بالتفوق الأخلاقى، فكانوا يرون أنفسهم مؤمنين فى حين أن الأوروبى كافر يأكل ويتمتع كما تتمتع الأنعامٍ. ولا تزال نظرة الغربى تثير غضب المسلم فى كل أنحاء العالم الإسلامى. وبدلاً من أن يرى المسلمون أن الأوروبيين بشرٍ مثلهم لهم عيوبهم ومميزاتهم ومخاوفهم وغباؤهم، فإنهم يفضلون أن يروه تجسيداً للشر ذاته لا يأتِ منه خير أبداً. فهذه النظرة توفر عليهم التفكير فى أخطائهم ومشكلاتهم وتجعلهم يستدفئون بدور الضحية فيجعلون الآخر دائماً هو المسؤول الوحيد عن كل إخفاقاتهم وكوارثهم.

يختتم أفلاطون قصة أصحاب الكهف بسؤال: ماذا سيحدث لو فُتح الكهف بالعنف وتحرر أحد أصحابه وخرج للنور. فى البداية سيخاف من الشمس وسيحمى نفسه من نورها، ولكنه مع الوقت سيعتاد عليها وعلى رؤية الأشياء كما هى. ولو عاد للكهف مرة أخرى ليشرح لإخوته أن العالم شىء آخر غير الظلال التى يرونها على الحائط لن يصدقه أحد، بل سيتهمونه بأن عينه أصابها العمى وقد ينتهى بهم المطاف إلى أن يقتلوه لأنه يعكر عليهم صفو عزلتهم ويشكك فى عظمة كهفهم. من الآن فصاعدا سيقتلون كل من يحاول أن ينزع عنهم قيودهم ويأخذهم إلى النور. وهذا بالضبط ما يسميه الفيلسوف الألمانى «إيريش فروم» «الخوف من الحرية». فالإنسان بطبيعته لا يسعى للمعرفة والحرية فى المقام الأول بل للأمان. وهو يجد هذا الأمان فى الدين والقبيلة وما تعارف عليه من حوله أنه الحقيقة. والقليلون جداً هم من يجرؤون على نزع القيود عن أنفسهم وعن عقولهم لأن ذلك يجعلهم يتخذون قراراتهم بأنفسهم ويتحملون عواقبها. الحرية قد تؤدى الوحدة والعزلة، لذلك يخافها الكثيرون ويفضلون حياة الكهوف.

وحياة الكهوف تولد تعظيم الذات كما تولد الـ«بارانويا» والشك القهرى والقلق من كل ما هو غريب أو جديد. وهذا هو حالنا اليوم فى معظم البلدان الإسلامية: نختبئ فى كهوف الماضى وننظر إلى كل نقد خارجى على أنه إعلان حرب ولكل نقد داخلى على أنه خيانة أو كفر. وكلما كان المجتمع مغلقاً، زادت نظرته إلى العالم الخارجى ككيان عدائى وزاد الضغط على أبناء المجتمع ليظهروا ولاءهم له وتضامنهم معه. ولو عاد أحد أبناء الكهف من الخارج ليفتح عيون اخوته إلى النور اتهموه بالعمالة للغرب وببيع قضايا بلاده. هكذا يتم وأد أفكار التحرر فى المهد لأن الجميع مشغولون بكراهية العدو الخارجى. وكلما زاد تأثير العالم الخارجى على أصحاب الكهف زاد ضغطهم على بعضهم، فتنتشر ثقافة المراقبة وثقافة الصمت. كل ذلك يؤدى إلى حالة أطلق عليها «زنا محارم ثقافى» حيث تسيطر الأحادية والتعصب على الفكر. والمعروف عن زنا المحارم أنه ينتج أطفالا مشوهين ومرضى.

وقد خاطر الكثيرون بحياتهم حين حاولوا كسر هذه الحالة من العزلة الحضارية

والفكرية فى بلادنا بداية بابن عربى وابن رشد وانتهاءً بسعد الدين إبراهيم ومحمود محمد طه وفرج فودة ونصر حامد أبو زيد. ولكن مصلحين كثيرين ممن غادروا الكهف ثائرين عادوا إليه مرة أخرى طائعين ولبسوا الأغلال بأنفسهم وبدأوا فى النظر إلى ظلالهم، ثم أطلقوا على ذلك: توبة!

متى بدأ الخلل؟
أو الوداع الطويل للحضارة الإسلامية

يمكن القول إن الحضارة الإسلامية كان لها ميلاداً يسيراً وطفولة مضطربة وفترة شباب قصيرة وناجحة وفترة شيخوخة طويلة ومؤسفة. يصف ابن خلدون العرب بالبداوة وعدم القدرة على إنتاج الفنون، وأن الإسلام هو الذى خلق منهم أمة حضارية تفوقت على باقى الأمم. وهذه أيضاً حجة يستخدمها الكثير من الإسلاميين الذين يرفضون فصل الدين عن السياسة. فيقولون إن أوروبا تخلصت من سلطة الكنيسة فى العصور الوسطى لأن المسيحية كانت ضد العلم، أما الإسلام فهو الذى جعل من رعاة الإبل أمة قادت العالم فى مجالات العلوم. ولكننى أميل إلى التشكيك فى هذه النظرية، فلم يكن الإسلام وحده السبب فى تطور العلوم والفلسفة فى المناطق التى خضعت للحكم الإسلامى، وإنما جهود من اعتنقوا الإسلام من الفرس والسريان واليهود وما أضافوه من حضاراتهم القديمة إلى الحضارة الإسلامية. والدليل على أن الإسلام وحده ليس صانع تلك الحضارة هو أن مراكز العلوم فى صدر الإسلام وفى عصره الذهبى لم تكن مكة والمدينة، حيث ولد الإسلام، ولكن دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وأصفهان وبخارى وسمرقند، وكلها مدن عاشت فيها حضارات قديمة استفاد منها المسلمون فيما بعد. وقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة لأنه ملأ فراغاً حضاريا خلفه الفرس والرومان اللذان استهلكا بعضهما فى حروب طويلة.

وكان المسلمون الأوائل يقلدون أساليب الروم العسكرية ويستخدمون نظام الدواوين الإدارى الذى ابتكره الفرس. وصفوة العلماء فى العصر الذهبى مثل الخوارزمى والفارابى والرازى وابن سينا لم يكونوا عرباً بل فرسا. حتى ابن رشد كان أمازيغيا وليس عربى العرق. وقد ساعد الحضارة الإسلامية فى تلك الفترة انفتاحها على العالم وتعاون المسلمين مع المسيحيين واليهود والفرس الذين ترجموا العديد من الكتب للمسلمين وأسهموا إسهاماً كبيراً فى بناء تلك الحضارة. وكان علماء المسلمين يطلقون على فلاسفة اليونان لقب «القدماء»؛ وهذا يوضح أنهم

كانوا ينظرون إليهم كأساتذة لا كغرباء أو كفار. حتى فى تفسير القرآن كان المسلمون يستعينون بعلماء اليهود، فالقرآن لا يحكى قصص الأنبياء من أولها لآخرها كما تفعل التوراة، ولكن يتعرض فقط لمواقف منها، وهكذا أسهم اليهود فى تكملة ما لم يكن يعرفه المسلمون عن الأنبياء وقصص الأولين.

وكانت عبقرية الإسلام هى دمج الفكر التوحيدى بالفكر التشريعى اليهودى بطقوس عربية قديمة مثل طقوس الحج فى خليط ناسب الكثيرين. وعلى الرغم من أن مفهوم الأمة كان مبنياً على العقيدة لا العرق، فقد ظل مفهوم القبيلة والعصبية قائماً وأسهم فى انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة بسرعة شديدة. ثم جاء مفهوم الجهاد كحالة دائمة لا تنتهى، فكان من يعتنق الإسلام من الشعوب الأخرى يتفانى فى الجهاد ليثبت أنه لا يقل عن المسلمين العرب.

والمبادئ التى ساعدت على انتشار الإسلام تبدو وكأنها ذات المبادئ التى تقف اليوم حاجزاً بين المسلمين والتطور فى العصر الحديث، لأنه لم يتم إعادة التفاوض حول تلك المبادئ أو إعادة صياغتها كى تناسب روح العصر. ففكرة أن الله هو المشرِّع للدولة وأن الجهاد حالة دائمة تحولان دون خلق مجتمع مدنى ودون التعاون مع غير المسلمين. كما أن العصبية القبلية لا تزال تسيطر على فهمنا للسلطة والشرف والكرامة ودور المرأة فى المجتمع.. مما يعوق المجتمع فى جهودة نحو الانفتاح.

حتى الآن لا توجد مراجعة شاملة للتاريخ الإسلامى لتنقيته من الأساطير والخزعبلات، فترانا نقبل كل ما نقله ابن إسحق وابن كثير وغيرهما وكأنه قرآن مُنزل. فنقرأ على سبيل المثال أن الرسول أرسل رسلاً إلى هرقل الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بكتاب جاء فيه «اسلم تسلم» وهو شىء لا يصدقه عقل، إذ كيف يدعو رجل عربى له أتباع قليلون زعماء العالم إلى دين لم يسمعوا عنه قط. فلنتخيل أن أحد زعماء البدو فى ليبيا اليوم يرسل برسالة إلى رؤساء الولايات المتحدة وروسيا والصين يدعوهم فيها إلى دين جديد، هل سيأخذه أحد مأخذ الجد؟ وللعلم فإنه لا توجد أية أدلة تاريخية غير إسلامية أن أحداً خارج الجزيرة العربية فى النصف الأول من القرن السابع سمع بنبى اسمه محمد أو بدين اسمه الإسلام. فمن الواضح جداً أن قادة المسلمين بعد وفاة الرسول هم الذين اخترعوا هذه القصة ليبرروا غزواتهم على أراضى الفرس والروم ومصر. وبخاصة فى العصر الأموى نجد أن كماً هائلاً من الأحاديث تم «إخراجه» لتعطى الحاكم سلطة مطلقة وتبين فضل بنى أمية على باقى القبائل.

وكلما ابتعد المسلمون عن زمن الرسول، ازداد شوقهم لكلام النبى ونصائحه فزادت الأحاديث الموضوعة وزاد تشبث المسلمين بحروف القرآن. فبينما دار فى القرن الثامن نقاش بين المعتزلة وأهل السنة حول طبيعة القرآن هل هو مخلوق أم أزلى، نجد أنه بدءاً من القرن التاسع أصبح القرآن لا مساس به ولا جدل حوله.

ومع ازدياد رقعة الأراضى الإسلامية المفتوحة زاد أيضاً النقاش مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود حول طبيعة المسيح وقصص الأنبياء، وقد أسهمت تلك المجادلات فى نشأة علم الكلام الذى بُنيت على أساسه الفلسفة والفقه الإسلاميين.

رأى المسلمون كيف يقدس النصارى شخص المسيح ويحكون عن معجزاته وقصة موته كشهيد، فكان من الصعب مقارنة الرسول محمد به، حيث مات الرسول ميتة طبيعية متأثراً بالحمى ولم يثبت أنه فى حياته أحيا الموتى أو جاء بمعجزات، لذا فقد بدأ المسلمون فى جعل القرآن نظيراً للمسيح ككلمة الله ومعجزته. وكانت هذه النظرة تمنع أى نظرة تاريخية تحليلية لنص القرآن مما أغلق الباب أمام مسائل فقهية وفلسفية كثيرة مرتبطة بتفسير هذا النص.

تعامل المسلمون بذكاء شديد مع غير المسلمين فى المناطق التى خضعت للحكم الإسلامى، فلم يغصبوهم على اعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية. فقد ظل على سبيل المثال أكثر من 60% من سكان مصر وسوريا مسيحيين حتى مجىء حملات الفرنجة فى نهاية القرن الحادى عشر. وقد غيرت الحملات الصليبية من تفكير المسلمين بشكل جذرى، فبعد أن كانوا يركزون على العلوم الدنيوية مثل الطب والرياضيات والكيمياء، صاروا يركزون على العلوم الدينية وعلى مفهوم الجهاد. كما بدأوا فى تضييق الخناق على أهل الذمة والشك بولائهم واتهموا بعضهم بالتعاون مع الفرنجة. وقد شهدت تلك الفترة أكبر موجة من أسلمة أهل الذمة الذين أرادوا بإشهار إسلامهم إظهار ولائهم لأولى الأمر من المسلمين من ناحية وللهروب من الضرائب الباهظة على غير المسلمين من ناحية أخرى. إذن فإنه من ضرب الأساطير أن نعتقد أن ملايين البشر اعتنقت الإسلام فى آن واحد فقط لأنهم اقتنعوا بمبادئه السمحة. فالقصة كانت دائماً تبدأ باعتناق أحد القساوسة أو زعيم قبيلة للإسلام فيلحق به كل أتباعه وأقاربه. وبدأ المسلمون فى النظر إلى من بقى من اليهود والمسيحيين على دينه بعين القلق والترقب، فقل التعاون العلمى والثقافى بين الجانبين مما أثر على تطور العلوم. وقد أثرت حالة من البارانويا على الفكر الإسلامى انتهت بغلق باب الاجتهاد والاعتقاد بأن كل المعرفة موجودة فى القرآن فلا حاجة للعلوم الدنيوية.

تفتت العالم الإسلامى إلى إمارات ودويلات من أيوبيين وفاطميين وسلاجقة وصفويين ومماليك كانوا يحاربون بعضهم بعضا، بل وتعاون بعضهم مع الصليبيين ضد بعض. وكان كل حاكم إمارة يحمى نفسه بمجموعة من المرتزقة المماليك يغدق عليهم العطاء، مما أسهم فى نشأة النظام الإقطاعى الذى ضاعف الفقر بين الفلاحين. وبعد فترة، وبسبب الحروب المتتالية، خلت خزائن تلك الإمارات من الأموال فكان على الحكام اختراع وسيلة أخرى لإرضاء فرسانهم المماليك، فابتكر الفاطميون فى مصر نظام الأوقاف بوضع حى سكنى كامل بمساجده ومدارسه تحت تصرف أحد الفرسان. وقد كان نظام الأوقاف هو بداية

تدمير التعليم فى العالم الإسلامى، إذ كان القائد العسكرى لا يهتم بتدريس العلوم الدنيوية، فأمر كل قائد المدارس بتحفيظ القرآن فقط، وأجبر المدرسين على الإشادة بجهاده والتسبيح بحمده. وكانت المدرسة التى ترفض ذلك يتم إغلاقها فورا. ومنذ ذلك الوقت يعزف التعليم فى معظم البلدان الإسلامية نفس النغمة: يطالب الطلاب بالولاء للحاكم ويبتعد عن العلوم الدنيوية.

وكان هجوم التتار فى القرن الثالث عشر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير. فقد أدى تدمير المكتبات ونسف الكتب فى بغداد واختطاف أمهر حرفييها إلى آسيا الوسطى.. إلى خلل كبير فى الكيان الثقافى والاقتصادى الإسلامى. وقد أدى ذلك إلى انتعاش الفكر السلفى الذى أرجأ أسباب الهزيمة إلى حالة الترف فى بغداد وانشغال المسلمين بالعلوم الدنيوية وبعدهم عن القرآن. ولكن من الخطأ أن نفسر سقوط العصر الذهبى الإسلامى فقط بالحملات الصليبية وهجوم التتار، فأى حضارة تسقط تدمر نفسها من الداخل أولاً قبل أن يهاجمها الغرباء من الخارج. وتاريخ العالم كله هو تاريخ إمبراطوريات كان القوى منها يهجم على من شاخ وضعف ويجهز عليه. عندما كان المسلمون أقوياء هجموا على الفرس والروم واحتلوا أراضيهم، وعندما ضعف المسلمون هجم عليهم التتار والقوى الاستعمارية.
إذن فمن غير المنصف أن نجعل الآخرين دائماً المسئولين عن سقوطنا، بل علينا أن نتساءل عن أسباب ضعفنا الحقيقية التى تجعلنا دائماً فريسة سهلة للآخرين.

نفس الشيء ينطبق على سقوط الأندلس. فبينما ننظر لإحتلال المسلمين الأندلس كفتح مبارك، نرى استعادة الأندلس على أيدى المسيحيين فرديناند وإيزابيلا عملا إجراميا. ولو قرأنا تاريخ الأندلس جيداً لعرفنا أن سقوط الأندلس بدأ قبل ثلاثة قرون من هجوم فرديناند وإيزابيلا عام 1492. بدأ سقوط الأندلس بهجرة الموحدين والمرابطين إليها من شمال إفريقيا، الذين جاءوا بفكر متعصب يختلف عن الفكر الأندلسى المتسامح. فبعدما كانت الأندلس مركزاً للعلوم والفلسفة تعاون فيه المسيحيون واليهود والمسلمون وأنتجوا حضارة فريدة من نوعها، جاء البربر بفكر أحادى يرى كل ما دون المسلمين على أنهم كفار يجب محاربتهم، وهكذا بدأ المسلمون فى الهجوم على بعضهم فانقسمت الأندلس أيضاً إلى إمارات صغيرة تحارب بعضها بعضا. وكان هؤلاء المتزمتون هم الذين أحرقوا كتب العلامة ابن رشد وتسببوا فى نفيه من قرطبة إلى مراكش. إذن فمن الخطأ أن نعتقد أن الأصولية الإسلامية ظاهرة حديثة ومؤقتة، فهذا الفكر الجامد موجود منذ نشأة الإسلام، وكانت لديه القدرة دائماً على الوقوف فى وجه أى تيار للإصلاح: ابن حنبل فى القرن التاسع، ابن تيمية فى القرن الرابع عشر، محمد بن عبد الوهاب فى القرن الثامن عشر، أسامة بن لادن فى القرن الحادى والعشرين.. هذا الفكر له الجذور نفسها وخارج من الروح نفسها، وإن تباينت أساليب التعبير عنه! أساس الأصولية هو الفكر الأحادى الذى يقسم العالم إلى عدو وصديق، مؤمن وكافر.

وبعد ستة أعوام من سقوط الأندلس اكتشف البحارة البرتغالى فاسكو داجاما طريق رأس الرجاء الصالح عام 1498 مما أدى إلى أن الشرق الأوسط فقد أهميتِه التجارية، فبعدها بدأت السفن التجارية تتجنب المنطقة العربية، وهكذا اختفت أيضا الأفكار الجديدة وروح التغيير. عزلة كبيرة دخلها العالم العربى زادت حدتها بالغزو العثمانى عام 1516. أعلم أن الكثيرين يفضلون تسسميته بالفتح العثمانى الإسلامى، ولكن أى فتح هذا؟ ألم تكن مصر وسوريا وبلاد المغرب العربى مسلمة بالفعل حين هجم الأتراك عليها؟ ألم يكن ذلك احتلالا واستعمارا مثلما فعلت فرنسا وإنجلترا؟ ألم يعش العرب أكثر من 400 سنة تحت وطأة الاحتلال التركى تدهور فيها التعليم والاقتصاد ودخل فيها العالم العربى طى النسيان؟ فلماذا إذن لا تتباكى كتب التاريخ المدرسية على تلك الحقبة؟ ألأن السلطان التركى كان يسمى نفسه خليفة المسلمين، أو لأن شيوخ الأزهر كانوا يدعون له من فوق المنابر؟!

وعندما حاول محمد على باشا الانفصال عن الدولة العثمانية وتحديث مصر لم يجد خليفة المسلمين فى إسطنبول أية مشكلة فى التحالف مع الإنجليز لكسر شوكة محمد على. وأيضا عندما حاول محمد على ضرب الحركة الوهابية فى الحجازِ وقف الإنجليز فى وجهه وتحالفوا مع آل سعود؛ ذلك التحالف الذى لا يزال قائماً حتى اليوم.

وبينما شهد القرن الثامن عشر فى أوروبا ثورة صناعية وعلمية وفلسفية لم يشهدها التاريخ من قبل، ظهر فى الجزيرة العربية رجل يجسد حالة الجمود الفكرى الذى وصل إليه المسلمون فى ذلك الوقت، وهو محمد بن عبد الوهاب. ومن الطريف أن يسمى أنصار ابن عبد الوهاب فِكره بـ«التجديد»، فأى تجديد هذا أن تهاجم أضرحة الأولياء وتفسر القرآن حرفياً؟ أليس هذا الفكر هو الأصولية بعينها؟ وهنا تكمن أكبر مشكلات الفكر العربى: لا بد أن نجدد مفهومنا للتجديد وأن نغير مفهومنا للتغيير أولاً، لأن هذا التغيير يقودنا فى أغلب الأحيان لجحور الماضى وكهف أفلاطون. فالتجديد لا يعنى العودة إلى الجذور، إلى حيث بدأ كل شىء، بل يعنى فهم روح العصر والتعايش معها وإعادة التفاوض مع النصوص مهما كانت قدسيتها. أكبر دليل أن الفكر الإسلامى يعانى منِ مأساة كبيرة هو أن فكر محمد بن عبد الوهاب الساذج جداً لا يزال يلعب دوراً هاماً فى العالم الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين. فبعدما أنجبت مصر مفكرين عباقرة من أمثال محمد عبده وعلى عبد الرازق وأحمد أمين وعباس العقاد وطه حسين ونصر حامد أبوزيد، نجد أن الفكر السلفى اليوم قد أخرسَ أصوات هؤلاء وكاد يحتكر ساحة الدعوة الإسلامية حتى فى بلاد الغرب.

بعد احتلال فرنسا للجزائر، وإنجلترا لمصر، ظهرت فى نهاية القرن التاسع عشر بشائر القومية العربية. نظر الشيخ محمد عبده إلى دولة ألمانيا الحديثة التى أسسها بسمارك كمثل أعلى لدولة عربية إسلامية موحدة. وكان الفكر القومى الذى ولد فى

أوروبا مثلاً أعلى لحركتين جديدتين صارتا عدوين لدودين فيما بعد وحتى اليوم: القومية العربية والصهيونية. كلتا الحركتين نشأت تحت وطأة القهر الأوروبى الذى استعمر البلدان العربية فى الشرق الأوسط واضطهد اليهود فى أوروبا. كلتا الحركتين كانت متأثرة بالفكر الاشتراكى، وكلتاهما كانت تسعى لخلق وطن قومى لشعبها المقهور. فلماذا نجحت الصهيونية فى تحقيق أهدافها بينما ظلت القومية العربية مجرد بقايا لفكرة جميلة؟

بينما بنت القومية العربية مشروعها على أساطير وشعارات، كانت الصهيونية تحسب خطواتها بتأنٍ وذكاء. وفى حين التف العرب دائماً حول قائد ملهم مثل نصف إله، كانت الصهيونية منذ بدايتها حركة جماعية وديمقراطية. وقد نشأت أفكار الصهيونية من أفكار يهود متدينين مثل «ناتان برنباوم» وآخرين علمانيين مثل «تيودور هيرتزل». وبغض النظر عن مجموعة صغيرة من اليهود الأرثوذكس، فإن معظم يهود أوروبا أجمعوا على التعاون من أجل خلق وطن قومى لهم. ففي المؤتمرات الصهيونية شارك طلاب وأساتذة وعلماء وصحفيون وعمال، رجالاً ونساءً. وعلى الجانب الآخر كان الرجال فقط يديرون دفة القومية فى مصر وسوريا وحتى فى تركيا وإيران.

وبينما ظلت القومية العربية محبوسة فى حناجر الخطباء استخدمت الصهيونية أربع استراتيجيات متوازية للوصول لأهدافها: الصهيونية السياسية ركزت على التفاوض مع زعماء العالم وشرح قضية اليهود لهم. لم يتفاوض الصهاينة فقط مع زعماء النمسا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا، بل سافر «تيودور هيرتزل» إلى إسطنبول وحاول إقناع السلطان عبد الحميد بتخصيص قطعة أرض فى فلسطين كوطن لليهود. ثم جاءت الصهيونية العملية التى نظمت الهجرة بصفة مستمرة إلى فلسطين وبنت هناك معسكرات العمل (الكيبوتس) لإدخال الأفكار الاشتراكية حيز التنفيذ. وفى تلك المعسكرات كان المهاجرون اليهود يزرعون الأرض ويشتغلون بالحرف اليدوية حتى ولو كانوا أساتذة جامعات، مما غرس بينهم روح التعاون والتواضع. ولكن هذا التواضع كان مقتصراً على تعامل اليهود مع بعضهم فقط. فقد اخترع هؤلاء المهاجرون مصطلح «أفودا إيفريت» أو «العمل اليهودى» الذى يحث اليهودى على عدم استئجار العرب للعمل، حيث كانت صورة العامل العربى أنه كسول ويفضل الجلوس فى المقاهى ولا يعمل إلا بالأمر.

أما الصهيونية الثقافية فقد كانت معنية ببناء المدارس وتعليم اللغة العبرية وأفكار حركة التنوير الأوروبية. فعلى الرغم من الاضطهاد الأوروبى لليهود لم يتخلَّ الصهاينة عن الفكر الأوروبى وحاولوا تصديره إلى فلسطين. أما الاستراتيجية الرابعة فكانت الصهيونية العسكرية حيث نظم المهاجرون اليهود عصابات مسلحة مثل «الهاجانا» التى كانت تعمل بتنسيق عالٍ جدا. ولكن عندما أعلن بن جوريون إقامة دولة إسرائيل سلمت جميع العصابات أسلحتها للدولة. وكان بن جوريون قد

أمر بإغراق سفينة فى البحر المتوسط كانت تحمل أسلحة لمناحم بيجن دون إذن من بن جوريون، على الرغم من حاجة إسرائيل لكل سلاح فى وقت الحرب.

وعلى الرغم من الحروب المتتالية التى خاضتها إسرائيل فلم تخضع هذه الدولة أبداً لحكومة عسكرية بل صممت على تشكيل حكومات ديمقراطية، فى حين كانت نفس الحروب هى ذريعة الحكام العرب فى إسكات الأصوات المعارضة. مقولة عبد الناصر الشهيرة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» هى أفضل مثال على ذلك.

هذا التحليل ليس مدحاً للصهيونية ولا تبريراً لاحتلال إسرائيل للأراضى الفلسطينية وسياسة التهجير، فالظلم ظلم مهما كان منسقاً. وإسرائيل طالما فوتت على نفسها الفرص لتحقيق تسوية سلمية مع الفلسطينيين وحل مشكلة اللاجئين وبخاصة بعد انتصارها فى حرب 1967. ولكنها دخلت فى دوامة البارانويا وأصرت على سياسة الاستيطان التى تجعل حل الدولتين يبدو مستحيلا، وهذه السياسة هى التى ستتسبب فى خنق إسرائيل نفسها من الداخل. ولكن ما أردت إيضاحه أن الدولة المدنية لا تقوم بالشعارات وحسن النوايا؛ ولكن بالتخطيط وبالفكر السليم وبإرادة فولاذية للشعب، وهنا تكمن مشكلتنا منذ قرون، حيث نسمح للتفكير العاطفى المندفع أن يتحكم فينا ويدخلنا فى مأزق بعد الآخر، ثم ننتظر الحاكم المنقذ على شاكلة صلاح الدين وعبد الناصر والبرادعى.

وفى حين كان عبد الناصر لا يفوت فرصة ليتوعد إسرائيل بالفناء والإلقاء بها فى البحر، كان الصهاينة يعملون فى صمت ويبنون جيشهم، ثم هجموا على مصر ودمروا جيشها فى ستة أيام دون إعلان حرب، واحتلوا بذلك القدس وغزة والضفة الغربية وسيناء والجولان. وقد أصابت هذه النكسة جيلاً كاملاً من العرب بالصدمة وفقدان الإيمان بالاشتراكية والقومية العربية. فتعالت الأصوات التى نادت بالتخلى عن كل الأنظمة المستوردة من الغرب والعودة إلى الإسلام. «التطرف الدينى يترعرع دائماً فوق حطام التجارب الفاشلة» كتبها الكاتب التونسى المقيم فى باريس، عبد الوهاب مدب. بعد النكسة عاد الإسلاميون بشعار «الإسلام هو الحل». العودة للمربع الأول وأسلمة الصراع هى دائماً الحل الأخير. وبينما كان الفدائيون الفلسطينيون فى بداية الصراع اشتراكيين ولا علاقة لهم بالدين، بدأت الحركة الإسلامية حماس فى الصعود فى ثمانينيات القرن الماضى وتلقت حتى معونات من إسرائيل لتقف فى وجه منظمة التحرير العلمانية التى كان يقودها ياسر عرفات.

التحالفات الخاطئة وعواقبها الوخيمة هى قصة العالم العربى المعاصر. تحالف الإنجليز مع آل سعود وتحالف عبد الناصر مع «الإخوان» ثم تحالف السادات معهم لضرب الناصريين، ثم تعاون الأمريكان مع شاه إيران ثم مع صدام ثم مع بن لادن. والآن تحالف الغرب مع الأنظمة العربية المستبدة. كل ذلك يقف فى وجه

التغيير ويعرقل أى محاولة للإصلاح. ومع ذلك فإن السبب الأساسى للأزمة هو حالة الفكر التى تسيطر على مجتمعاتنا وعدم القدرة على خلق عملية طويلة المدى من الإصلاح الداخلى والتخطيط السليم. ومن المؤسف أن الحركة العربية الوحيدة التى تمكنت من فعل ذلك حتى الآن هى تنظيم القاعدة التى استخدمت الفكر العنكبوتى والتكنولوجيا الحديثة والانضباط كأدوات لتحقيق أهدافها. فلو أن الإصلاحيين تخلوا عن الشعارات واتخذوا من «القاعدة» والصهيونية مثلاً أعلى، ربما سنصل يوماً لحل أزمتنا.

ولكن على الجانب الآخر يمثل تنظيم القاعدة أكبر مأساة يواجهها الفكر الإسلامى: فهم يشترون أسلحة غربية ليقتلوا بها الغرب، ويستخدمون كاميرات فيديو غربية ليذبحوا أمامها رهائن غربيين، ويغازلون وسائل الإعلام الغربية من أجل أن يصل صوتهم لأعدائهم.

حالة انفصام واضحة تسيطر على مجتمعاتنا العربية. فمن ناحية يزداد التزمت والجمود الفكرى، ومن ناحية أخرى وصلت معدلات الاستهلاك إلى حد خطير. فى حين ننظر إلى الغرب كعدو كافر، تمتلئ شواطئنا ومدننا بالسياح الأجانب الذين يوفرون لنا بذلك أهم مصدر للدخل القومى. الكثيرون ممن يعملون بمجال السياحة لا يجدون بديلاً عنه ويشعرون فى الوقت ذاته أنهم يبيعون أرواحهم للشيطان، لأنهم يحملون الخمور ويساعدون على البغاء. منذ شهور قابلت شاباً من خريجى كلية الشريعة والقانون ومع ذلك كان يحمل الشيشة والكحول للسياح الأجانب بأحد فنادق الغردقة. رأيت فى عينيه الحسرة والنقمة والشعور بالذنب. «أمال بس الواحد يعمل إيه يا باشا؟» كان تعليقه الوحيد على عمله الذى يخجل منه.

والسياح الأجانب لا يجلبون معهم أفكار التنوير والديمقراطية ولكن عنجهية «الأسياد» وجهلهم بالحضارات. تراهم يحبسون أنفسهم فى رحلات منظمة لا يرون فيها حقيقة البلد الذى يزورونه، بل يؤكدون فقط أحكامهم المسبقة عن الفقر والكسل السائد فى مجتمعاتنا. يعيشون فى فنادق مكيفة ويستهلكون كميات مهولة من مياه الشرب فى حمامات السباحة وملاعب الجولف، رغم أن كل البلدان العربية تعانى من نقص فى المياه.

وهناك ظاهرة أخرى فى منتهى الخطورة تنخر مثل السوس فى مجتمعاتنا وتوضح مدى ازدواجية الأخلاق التى وصلنا إليها. شباب مصريون مفتولو العضلات يتجولون على شواطئ الغردقة وشرم الشيخ ويبيعون أجسادهم للسائحات الغربيات كبيرات السن، وعاهرات من أوروبا الشرقية يمارسن الرذيلة مع من يدفع. وفى تونس اخترعوا لتلك الممارسات كلمة تعبر أن كل شىء عندنا أصبح للبيع: بيزنس. ولكن ليس وحدهم السياح الغربيون «الكفار» هم الذين يمارسون السياحة الجنسية، بل أيضاً أشقاؤنا العرب. فجولة صغيرة فى شارع جامعة الدول العربية وشارع الهرم وفنادق دمشق وحانات بيروت تكفى لرؤية الحقيقة المرة.

حراس الأخلاق فى بلادنا يزدادون يوماً بعد يوم فى حين تختفى الأخلاق الحقيقية من تعاملاتنا مع بعضنا. التدين الظاهرى ينمو كالسرطان فى حين تنحسر روح الدين ومبادئه. الشباب يبحثون عن بوصلة وعن بصيص أمل، فينتهى بهم المطاف عند الجماعات المتطرفة أو دعاة الفضائيات الذين لا يبيعون إلا الوهم والحواديت. العنف والإرهاب ظواهر لا يؤيدها معظم المسلمين، ولكنها نابعة من حالة فكر وأسلوب حياة يسيطران عليهم. الخلل بدأ منذ زمن، ولكنه يزداد اليوم بشكل ملحوظ ويهدد بزلزال.

الحداثة والمُحدثة..
أو طريق المسلمين الشائك نحو التنوير

أراد نابليون بونابرت أن تكون حملته الفرنسية على مصر بداية لبناء إمبراطورية فرنسية فى الشرق تقطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها فى الهند. وقد تمكن من إحكام سيطرته على مصر بسرعة بعد أن تعاون مع بعض علماء الأزهر وكبار التجار(طبقاً لما ورد فى بعض المصادر الفرنسية). والحقيقة أن المصريين بطبيعتهم ليسوا شعباً ثورياً، وكان من السهل عليهم دائماً قبول أى حاكم إغريقياً كان أم رومانياً، فاطمياً أم تركياً، فرنسياً أم إنجليزياً، صعيدياً أم منوفياً. وكان

الدين دائماً هو مفتاح يدخل به الحاكم الجديد إلى قلوب المصريين. فقد نشر الفرنسيون إشاعة أن نابليون اعتنق الإسلام حين لاحظوا عدم قبول المصريين له، ثم دعا له الشيوخ من فوق المنابر وقالوا إنه من أولى الأمر. وكان الإسكندر المقدونى قد فعل نفس الشيء عندما فتح مصر، فذهب إلى واحة سيوة وعمّد نفسه ابنا للإله آمون، فقبله المصريون كحاكم بأمر الإله. وقد انتبهت جيوش النازى لتلك المسألة فنشروا إشاعة إسلام هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية أثناء تقدم قائده روميل فى الصحراء الغربية، حتى يناصره المسلمون ضد الإنجليز. وفى الوقت نفسه استخدمت فرنسا مرتزقة من المغرب العربى فى حروبها ضد ألمانيا وباركت «جهادهم فى سبيل الله».

لم يأتِ مع نابليون فقط الأسلحة ومعدات الحرب، بل العلماء والجيولوجيون الذى اكتشفوا كنوز مصر قبل أبنائها. فكتبوا كتاب «وصف مصر» واكتشفوا حجر رشيد وفكوا رموز اللغة المصرية القديمة. جاءوا بنظام قضائى وإدارى حديث بهر المسلمين، كما يكتب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى عايش الحملة الفرنسية. ولكن عندما سمع نابليون بخسائر فرنسا الحربية فى أوروبا ترك مصر وسلم حكمها لصديقه الجنرال «جان بابتيست كليبر» الذى لم يكن محبوباً من المصريين، حيث تم اغتياله على يد الطالب الأزهرى سليمان الحلبى. وسليمان الحلبى اسم يعرفه الجميع فى مصر، حيث يراه الكثيرون كبطل قومى، ولكن من الطريف أن نعرف أن عبد الرحمن الجبرتى يسميه «فتى أحمق وأرعن». فقد كان الجبرتى شاهد عيان لمحاكمة الحلبى ورأى كيف كانت محاكمة عادلة، وتعجب لماذا لم يقتل الفرنسيون الجانى دون محاكمة، كما يفعل حكام المسلمين إذا حاول أحد الاعتداء عليهم أو حتى ذمهم.

ولكن «الفتى الأحمق الأرعن» قد أصبح بعد مائة وخمسين عاماً من إعدامه بطلاً عند كتابة تاريخ مصر الحديث بعد «ثورة» عام 1952، كما أصبح شهيدا ومجاهداً فى عيون أنصار الإسلام السياسى. فكل دولة قومية وكل حركة تحرير تحتاج لأبطال حتى ولو من ورق.

وبعد ثلاثة أعوام رحلت الحملة عن مصر، ولكنها تركت رائحة الحداثة وبعض أفكار الدولة الحديثة، فقد اجتمع علماء الأزهر والتجار والأعيان وقرروا عزل خورشيد باشا حاكم مصر وتعيين الجندى الألبانى محمد على الذى لاحظوا مواظبته على الصلاة فى الأزهر. وقد كان ذلك هو أول وآخر انتقال سلمى للسلطة فى بلد عربى دون انقلاب عسكريٍ أو توريث. ولكن يبدو أن أعيان مصر ورجال دينها لم يجدوا مصرياً واحداً قادراً على حكم مصر، فذهبوا لأحد الجنود المرتزقة ليحكمهم.

من الممكن إجراء مقارنة سريعة بين محمد على وجمال عبد الناصر: كلاهما تعاون مع رجال الدين للوصول للحكم ثم تخلص منهم بعد أن نال غرضه، فقد

تودد محمد على لشيوخ الأزهر حتى نصبوه حاكماً، ولكنه قام بنفيهم ما إن وصل للعرش. فى حين تعاون عبد الناصر مع الإخوان حتى قامت الثورة، ثم ألقى بهم فى السجون فور وصوله إلى الحكم. كلاهما أراد تحديث مصر وتطويرها فطورا التعليم وأرسلا البعثات للخارج وأقاما المصانع والمشاريع الزراعية. كلاهما حاول بناء جيش مصرى قوى وجعل صوت مصر مسموعاً فى العالم، فانتهت مغامرة كليهما بكارثة أعادت مصر للوراء، حيث انقضت القوى العظمى عليهما ودمرت مساعيهما. ولكن كليهما ارتكب أخطاءً عديدة. فلنبدأ بمحمد على ثم نعود لعبد الناصر فيما بعد.

نظر محمد على إلى فرنسا كمثل أعلى لبناء دولته، وقد أدرك أن بناء دولة حديثة يحتاج فى المقام الأول لجيش قوى وصناعات ثقيلة. فأرسل البعثات إلى فرنسا وأمر بترجمة الكتب من الفرنسية للعربية. وكان من بين الطلاب الذين ذهبوا لفرنسا رفاعة رافع الطهطاوى، الذى أسس فيما بعد مدرسة الألسن فى القاهرة التى أتشرف أن أكون أحد خريجيها. ما نعلمه عن رفاعة أنه كتب كتاب «تخليص الإبريز فى تلخيص باريس» وقام بالعديد من الترجمات. ما لم نعلمه هو أن معظم الترجمات التى كلف بها الطهطاوى كانت لمستندات عسكرية عن بناء السفن وعن الخطط الحربية. ركز محمد على باشا على الجانب الحربى والصناعى ونسى الجانب الفكرى والتعليمى. وحتى الصناعة لم تتطور بشكل جيد فى عهده لأنه بنى المصانع العملاقة التى لم يعرفها المصريون والتى لم يكن لها أدنى علاقة بالصناعات الحرفية الصغيرة التى اعتادوا عليها. كما أنه لم يأخذ من فرنسا إلا مفهوم الحداثة المادية ونسى أهم مبادئها وهى الديمقراطية والفكر الحر. فعلى الرغم من كل جهود التحديث ظل محمد على حاكماً من الطراز العربى الأصيل، يحكم بلا محاسبة ويغتال أعداءه ويوزع الثروات والأراضى على عائلته ومحسوبيه ويورث الحكم لأبنائه، وبذلك أصبح مثلاً أعلى لكل حكام العرب فى العصر الحديث.

استعار محمد على أدوات الحداثة ومنتجاتها ولكنه ابتعد عن روحها ومبادئها، وهى قضية معظم الإصلاحيين فى مجتمعاتنا الإسلامية، الذين يأخذون من فكر الإصلاح فقط ما يخدم مخططاتهم ويحافظ على سلطاتهم. ولكن الحداثة ليست «بوفيه مفتوح» نأخذ منه ما نشاء ونرفض ما نشاء. فإما أن يتوصل المشروع الحداثى إلى ديمقراطية وفكر حر أو أنه يصبح ركاماً ينمو فوق أشلائه التطرف والركود. هذه قصة محمد على وجمال عبد الناصر اللذين كانا حسنا النية وأرادا تغيير مصر، ولكنهما نفسيهما لم يتغيرا ولم يفتحا الطريق إلى ديمقراطية حقيقية، فانتهى مشروع الأول باحتلال مصر على يد الإنجليز؛ وانتهى مشروع الآخر بنكسة 67.

ولكن القضية ليست فقط سوء تخطيط الحاكم وتشبثه بالحكم وإنما أيضا مفهوم الحداثة عند الشعب. فكلمة حداثة قريبة من كلمة مُحدثة، وكل محدثة بدعة وكل

بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار. وحتى لو كانت المُحدثة التى تحدث عنها الرسول تعنى التجديد فى الطقوس الدينية فقط، فإن قرابتها اللفظية بمصطلح الحداثة أثر سلبياً عليها.

ولو قارنا كلمة الحداثة فى العربية بنظيرتها فى اللغة اليابانية على سبيل المثال لعرفنا أين تكمن المشكلة. فكلمة حداثة باليابانية (بونمى كايكا) تعنى «فتح أبواب الحضارة»، وقد أطلق اليابانيون على تلك العملية فى نهاية القرن التاسع عشر «مغادرة آسيا واللحاق بأوروبا». وقد قاد دفة التغيير والحداثة فى اليابان كاتب يدعى «فوكوزاوا يوكيتشى» وهو صاحب كتاب «وداعاً آسيا» الصادر عام 1885، الذى شرح فيه «يوكيتشى» لليابانيين مفهوم الحداثة وكيف يمكن لليابان أن تستفيد منها. كتب «يوكيتشى» يحث أبناء شعبه على الانفتاح ما يلى: «إن رياح الغرب تهب بشدة علينا حاملة لليابان معها فرصة كبيرة لتتذوق فواكه المدنية الحديثة. ولو فوتنا تلك الفرصة فسنظل محبوسين فى قدرنا».

كانت اليابان فى فترة الـ«ميجى» التى بدأت عام 1868 تمر بنفس المرحلة التى مرت بها مصر فى عصر محمد على، حيث حاولت بجدية اللحاق بأوروبا وتأسيس جيش قوى وصناعات حديثة. وقد نجح المشروع اليابانى لأنه لم يبدأ بالصناعات الثقيلة مباشرةً؛ بل قام بتحديث المهن الحرفية التقليدية فى اليابان وتنظيم نقابات للحرفيين والفلاحين لا تزال تلعب دوراً هاما فى اليابان حتى اليوم. كما بنى اليابانيون جيشهم فى صمت ولم يدخلوا حروباً حتى تأكدوا من قوتهم العسكرية. والأهم من ذلك هو أن اليابان لم تستورد فقط العلم الحديث والتقنية الصناعية من الغرب، بل ترجمت أيضاً أعمال الفلاسفة الأوروبيين. وعلى الرغم من الصراع الضارى الذى نشب فيما بعد بين اليابان والولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وإلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكى، وعلى الرغم من احتلال أمريكا لليابان بعد انتهاء الحرب، فلم تنشأ فى اليابان روح عدائية ضد الغرب وأفكاره، بل حاول اليابانيون التعلم من أخطائهم فتعاونوا مع المحتل وأعادوا بناء بلدهم حتى أصبحوا ثانى أكبر قوة اقتصادية فى العالم.

ولكن الحداثة جاءت دائماً للعالم الإسلامى محملة على سفن الغرب الحربية، وكان يتم فرض أفكارها وأدواتها على المسلمين، إما عن طريق المستعمر المحتل أو القائد العسكرى دون شرحها وتوضيحها للمواطنين. لم يوجد بين المسلمين شخص مثل «فوكوزاوا يوكيتشى» ليشرح للمسلمين ما هى الحداثة وكيف السبيل إليها. بالطبع كان هناك محمد عبده والأفغانى اللذان عاشا فى نفس زمن «يوكيتشى» ولكن نظرتهم إلى الحداثة كانت محدودة وترحيبهم لها مشروطاً بأمور دينية وتراثية. وبذلك قاد فكر الأفغانى وعبده إلى السلفية أكثر مما قاد إلى الانفتاح.

لم يستغن اليابانيون عن حضارتهم وتراثهم حين قرروا الانفتاح على الغرب، ولكنهم لم يجعلوا من هذا التراث ضداً أو بديلاً للحداثة، بل قرروا دمجهما فى

خليط متناسق لا يلغى بعضه بعضا. فهم اليابانيون حينها أن لغة العصر الحديث هى لغة العلم والتكنولوجيا، وأن أوروبا هى الأكثر تقدماً فى تلك المجالات، وأنه لا داعى للخجل من استعارة تلك الأدوات، فقام اليابانيون بنسخ القوانين الأوروبية وأساليب التعليم وفتحوا الأبواب للموسيقى الكلاسيكية والفلسفة. أما على الجانب الآخر فقد تم استخدام مصطلحات «التراث» و«الأصالة» فى العالم العربى والإسلامى فى معظم الأحيان كدروع للصراع وأضداد للحداثة ومبادئها. كانت نظرة المسلمين للحداثة دائماً يشوبها الشك وأحياناً الغضب، ظناً منهم أنه لا يأتى خيرٌ أبداً من بلاد الكفار. وبينما رأى اليابانيون فى مجىء الفكر الأوروبى فرصة للتغيير والتقدم، كان ذلك المجىء للمسلمين سبباً للتمسك بهوية قديمة عفى عليها الزمن. وكلما بحث المسلمون عن هويتهم وعن بدائل للنظم الغربية انتهى بهم المطاف دائماً إما إلى أحضان الدولة الدينية مثل السودان وأفغانستان وإيران، أو إلى أحضان القائد العسكرى من أمثال عبد الناصر والأسد والقذافى وشاه إيران وصدام حسين.

كان الإسلام السياسى دائماً قادراً على توفير حيِّز للهروب إلى الخلف: الهروب إلى تاريخ خيالى لأمة إسلامية خالية من العيوب. ولكن هذا الإسلام السياسى ما قدم أبداً حلولا للأمام. كانت لديه القدرة دائماً أن يكون معارضاً جيداً وصوتاً غاضباً، ولكن ما إن آلت إليه السلطة حتى انتهى الأمر بكارثة مثلما رأينا فى أفغانستان والصومال ونيجيريا والسودان. إن العودة المتكررة إلى شعار إسلامى مثل «الإسلام هو الحل» هو دليل على قلة الحيلة واليأس السياسى.

ومهما مرّ العالم الإسلامى بمراحل الانفتاح والتنوير فإن العودة للأسلمة كانت دائماً بديلا مطروحاً بصفة دائمة. ففى حين شهد القرن الثامن الميلادى مناقشات مفتوحة حول القرآن وقدسيته وحول الشريعة ودورها وآراء مستنيرة لمدارس فكرية مثل المعتزلة، نجد أن نهاية القرن العشرين شهدت مقتل محمود محمد طه فى السودان وفرج فودة فى مصر وتطليق نصر حامد أبو زيد من زوجته واتهامه بالكفر. ولم تكن جناية الثلاثة سوى أنهم أعادوا فتح الملفات الشائكة لدور القرآن والشريعة والخطاب الدينى فى المجتمع الحديث.

فى عام 1937 كتب إسماعيل أدهم كتيباً بعنوان «لماذا أنا ملحد» شرح فيه قناعته بالإلحاد وسعادته به مثل قناعة المؤمن وسعادته بإيمانه. لم يُحدث هذا الكتاب أية ضجة فى المجتمع المصرى حينها، وجاء الرد الوحيد عليه من الشاعر أحمد زكى أبو شادى فى مقال «لماذا أنا مؤمن» وانتهت القصة عند ذلك الحد. كان المجتمع المصرى حينها فى طريقه لامتصاص فكر الحداثة وفصل الدين عن السياسة وخلق مجتمع مدنى يحترم جميع مواطنيه مهما كانت انتماءاتهم الدينية والفكرية. ولكن تلك الحداثة كانت مبنية على أساس هش فى مصر، حيث لم تصل أفكارها سوى لشريحة بسيطة من المجتمع، لذلك فقد كان من السهل التغلب عليها

والعودة للفكر المتزمت مرة أخرى. فلو كتب اليوم أحد كتاباً يشرح فيه أسباب قناعته بالإلحاد فلن يأمن من أبواق المتأسلمين ورصاص الإرهابيين. فقد تم إعدام محمود محمد طه فى السودان عام 1985 لمجرد أنه اعتبر الشريعة الإسلامية كياناً تاريخياً كان يجيب على متطلبات المسلمين فى المدينة المنورة فقط، كما رأى أن الآيات المكية من القرآن صالحة لكل العصور لأن بها نظرة كونية شاملة، أما الآيات المدنية فهى مرتبطة بأحداث بعينها ولى عصرها. كما لقى فرج فودة مصرعه على يد الإرهابيين فى عام 1992 لأنه كان من المطالبين بفصل الدين عن السياسة، وتوجه نصر حامد أبو زيد عام 1995 إلى هولندا فاراً من صراخات التكفير التى تعقبته بسبب كتاب كان نشره فى ثمانينيات القرن الماضى حول مفهوم النص القرآنى.

نعم.. إن الفكر العربى والإسلامى كان أكثر انفتاحاً ونضوجاً فى بدايات القرن العشرين عما هو الحال فى بدايات القرن الحادى والعشرين، ولكن هذا لا يعنى أن الناس كانوا حينها أقل إيماناً من اليوم، بل صار هذا الإيمان أكثر صورية وحنجرية اليوم، وصار يفتقر إلى الجوهر والسكينة.

هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا التزمت الفكرى، وأهمها فى نظرى هو فشل كل محاولات التحديث التى لم تجلب للناس الديمقراطية والرخاء. أما السبب الآخر فهو عدم تنقية الفكر الإسلامى من مرض الأصولية وعبادة النص، وهو مرض ليس حديث بالمرة، وليس - كما يرى الكثيرون - مجرد رد فعل على الحداثة والعولمة. فالأصولية والميل للتزمت عمرهما من عمر الإسلام نفسه، وكانت كل أزمة يمر بها المسلمون تعيدهم إلى الأصولية مرة أخرى، فبعد الفتنة الكبرى وانفصال الشيعة ظهر الفكر الأصولى عند أهل السنة بزعامة ابن حنبل، وبعد هجوم الصليبيين والتتار انتعش الفكر المتزمت الذى أحياه ابن تيمية، وفى نهايات القرن الثامن عشر ظهر محمد بن عبد الوهاب الذى سلك نهج ابن حنبل وابن تيمية، ولكنه كان أكثر بدائية منهما، ثم ظهر فى السودان فكر المهدى وفى الهند فكر المودودى كرد على الاستعمار.. ثم ظهر الإخوان المسلمون فى مصر الذين كانوا نواة لجميع الحركات الإسلامية والتكفيرية الجديدة. وهناك فى أحراش أفغانستان التقت كل هذه الأفكار وكونت تحالفاً غريباً نتج عنه تنظيم القاعدة الذى يمثل حضيض الفكر الإسلامى المعاصر.

فى الحقيقة فإنه لا يوجد فى التاريخ الإسلامى كله عملية يمكن يمكن مقارنتها بحركات «التنوير» فى أوروبا، فكل محاولة إصلاح فكرى أو ثقافى كانت فردية جاء بها علماء أفذاذ من أمثال المعتزلة وابن رشد ومحمد عبده ونصر أبو زيد، ولكن هذه الأفكار والمحاولات لم تكن سوى قنوات صغيرة فى صحراء شاسعة، ففقدت مياهها قبل أن تلتقى وتصبح نهراً يشق طريقه صوب المحيط. لم تكن سوى موجات صغيرة تحطمت على صخرة الأصولية العنيدة.

إن كلمة «process» الإنجليزية تختلف تماماً عن مرادفتها العربية «عملية»، ففى حين تعنى الكلمة الإنجليزية سيرورة طويلة من المحاولات والإخفاق، تعبر الكلمة العربية عن عملية قصيرة محدودة، ولذلك فإننا نطلق اللفظ نفسه على العملية الجراحية. ربما يكمن هنا سر فشل جميع «عمليات» الإصلاح والتنوير التى بدأت فى مجتمعاتنا الإسلامية ثم ذهبت طى النسيان، لأنها كانت محاولات موقوتة لم تبن على ما هو موجود أو تمهد لما هو قادم. ولعل قصة عباس بن فرناس أصدق دليل على ذلك، فقد كان عالماً فيزيائياً نابغاً درس حركات الطيور وحلم بتقليدها، فأجرى حسابات دقيقة وصنع جناحين من الريش ثم حاول الطيران فى سماء قرطبة فى القرن التاسع الميلادى. ولكن رحلة طيرانه لم تتعد أربعمائة متر سقط بعدها على أرض الواقع وانكسرت ساقاه. لم يكرر ابن فرناس محاولته مرة أخرى ولم يجرؤ عربى واحد على إعادة المحاولة. ربما تصف هذه القصة حالة الفكر العربى الذى لم يفتقر أبدا إلى النوابغ ولكنه افتقر إلى الاستمرارية والتواصل والتخطيط على المدى البعيد. قصة ابن فرناس هى بلا شك أيضاً قصة الإصلاح أو اللا إصلاح فى العالم الإسلامى.

بالطبع لعب الاستعمار دوراً هاماً فى عرقلة الحركات الإصلاحية، فقد كانت القوى الاستعمارية معنية بنهب ثروات البلاد المستعمرة فى المقام الأول. ولكن البكاء على الحقبة الاستعمارية اليوم لن يفيد أحداً، فقد استعمرناهم مرة واستعمرونا مرة. وعلى العموم فإن الاستعمار كانت له أشكال مختلفة، ومهما كانت شراسته وجشعه فإنه جاء بأدوات الحداثة التى لم نحسن استخدامها. وهناك فرق شاسع بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى: فالإنجليز لم يتدخلوا فى الشئون الثقافية والحضارية لمستعمراتهم واكتفوا بالسيطرة على الثروات والموارد، لذلك فنحن نلوم عليهم عدم المبالاة والاستغلال. أما الفرنسيون فكانوا حريصين على بناء المدارس ونشر اللغة والثقافة الفرنسية فى مستعمراتهم، فلمنا عليهم محاولة طمس ثقافتنا وهدم مقدساتنا. إذن فهم الجناة دائماً ونحن الضحايا دائما، وهذه نظرة منقوصة إلى التاريخ فوتت علينا فرصاً كثيرة للانفتاح على العالم والاستفادة من الآخرين، فقد ظللنا محبوسين فى دور الضحية ظانين أنه لا يأتى خيرٌ أبدا من بلاد المستعمرين. وحتى بعد مرور عشرات السنوات من نهاية الاستعمار ما زلنا نشكك فى نوايا كل مصلح ونصفه بالعمالة للغرب ومحاولة النيل من تراثنا وثقافتنا، فنقتل كل جنين للتغيير قبل أن يلتقط أنفاسه الأولى.

ولكن ضراوة الاستعمار وقسوته ليستا السبب الرئيسى لحالة التشنج التى نتعامل بها مع الغرب اليوم. أيضاً ليست فقط قضايا المسلمين غير المحلولة فى فلسطين والعراق والشيشان وراء حالة «الزعل المزمن» التى تسيطر على علاقتنا بالغرب، ولكنى أعتقد أن نظرة المسلمين إلى أنفسهم وإحساسهم بالضعف وقلة الحيلة هى وراء حالة التشنج هذه. والكاتب الفرنسى التونسى عبد الوهاب مدب يرى أن المسلمين لم يقبلوا بعد حقيقة أنهم فقدوا الريادة فى العالم منذ زمن بعيد

وأنهم لا يزالون يصرون على أحقيتهم فى قيادة العالم، وأن هذا التفكير يقف عائقاً بينهم وبين الغرب الذى سحب البساط من تحت أقدامهم. ويرى مدب أن هذا هو السبب الحقيقى لكراهية المسلمين للغرب وأن هذه الكراهية هى غذاء الأصولية التى يسميها مدب «مرض الإسلام».

ويصف الفيلسوف الألمانى «نيتشه» الشخص الكاره الحقود بأنه شخص يعتقد أنه أفضل من الظروف التى يعيش تحتها وأفضل من عالمه المحيط، وأن الكراهية المزمنة هى شعور ينتج من إحساس غير موضوعى بأن هذا الشخص مظلوم علي طول الخط. ويشبه نيتشه هذه الكراهية بالحمى التى لا يشفى الشخص منها أبداً فتؤدى فى النهاية إلى تسمم ذاتى. كما يصف الفيلسوف «أدورنو» الكراهية بأنها الموتور الأخير الذى يحرك مجموعة من البشر إذا فقدت كل طاقتها، وأن العدو والشعور الدائم بالكراهية نحوه هما مصدر لتجميع القوى المسلوبة، وهى ظاهرة موجودة حتى فى مباريات كرة القدم.

تجارة الغضب..
أو أنا مسلم إذن أنا زعلان

أعتقد أن شعورنا بعداء الغرب لنا ورغبته فى النيل منا هو شعور عزيز علينا جداً، فلا نريد أن نتخلص منه. فهذا الشعور يجعلنا نعتقد أن لنا قيمة. فلو أن الغرب تجاهلنا تماماً لأصبنا بخيبة الأمل وربما شعرنا أننا لسنا على قيد الحياة. فأرانا نترقب إهانات الغرب لنا وننقب عنها فى كل مكان وكأننا نتلذذ بذلك فى لعبة مازوخية. فيبدو أن الغضب والعداء هما السلاحان الوحيدان المتبقيان لدينا فى صراعنا مع الغرب بعد أن خسرنا سباق العلم والصناعة والتسلح ضده. ومن ناحية أخرى فإذا جاء مديحٌ للإسلام من شخص غربى كان ذلك مثل بلسم على جروحنا. فبينما ودعنا الرئيس الأمريكى السابق بضربة حذاء من العراق، استقبلنا الرئيس الجديد أوباما بالتصفيق الحاد فى جامعة القاهرة، وكانت قاعة المحاضرات تهتز نشوةً كلما استشهد أوباما بآية من آيات القرآن أو اعترف بدور المسلمين الحضارى عبر التاريخ.

ولكننا نحتفى بالأهانات أكثر من احتفائنا بالمديح، وكأننا مصابون بإنفلونزا مزمنة اسمها الزعل، فلا يمر يوم واحد دون أن نبدى فيه للعالم أننا مستاءون «وواخدين على خاطرنا من الدنيا واللى فيها».

وكأن مصائبنا الداخلية لا تكفينا كمصدر للنكد والعويل، فإننا نفتش فى أخبار باقى

العالم عن مسلمين مضطهدين فى الصين أو الشيشان أو بلاد الواق الواق كى نتأفف أكثر ونثبت لأنفسنا أن هناك مؤامرة كونية تحاك للمسلمين فى شتى بقاع الأرض وأصقاعها. وإذا شبعنا من هذه الأخبار نذهب لنفتش فى ضمير العالم عن راسم كاريكاتير يستهزئ بالرسول أو رجل عنصرى أوروبى تطاول على الإسلام والمسلمين أو نادى كرة قدم يدعى فى أغنية فريقه زورا وبهتانا أن نبينا لم يكن يفقه شيئا فى كرة القدم.

والصحف العربية تفهم أن الشعوب «طهقانة وطالع عينها» من جهة، وعاطفية من جهة أخرى، فنراها تنتقى لهم الأخبار التى تضرب على الوتر الحساس. ولو كان الخبر ليس دراميا بما يكفى يتم تحبيشه وإعادة صياغته بصورة تضمن المفعول الأكيد: زوبعة فى فنجان. صارت هذه الأخبار بمثابة طب نفسى شعبى: نثور ونلعن ونتظاهر ونفرغ مخزون الغضب الذى بداخلنا فى الهواء ثم نعود إلى ديارنا ونستلقى على قفانا وكأننا فعلنا شيئا عظيما. وفى النهاية لا يستفيد إلا الدكتاتوريون فى بلادنا لأننا نبدد جهودنا فى مبارزة «اللهو الخفى» فلا تبقى لدينا طاقة من أجل التفكير فى التغيير.

صار من يقرأ الصحف العربية يظن أن العالم بصفة عامة والغرب بصفة خاصة ليس لهم شاغل سوانا، وكأنهم يستيقظون فى الصباح فيكون أول سؤال يطرحونه على أنفسهم هو: كيف نعكر دم المسلمين وننكد عليهم عيشتهم؟ دعونى أكون صريحا معكم: نحن لا نعنى أى شىء بالنسبة للغرب، فنحن لا ننافسهم فى الاقتصاد ولا نتفوق عليهم فى البحث العلمى، وكل ما يريدونه منا هو فقط ما تبقى من بترولنا حتى يخترعوا بديلا له. ما عدا ذلك فلا نشغل من تفكيرهم سوى حيز بسيط وهو كيف يتجنبون شرورنا وكيف يسوقون بضائعهم عندنا. بل نحن المهووسون بهم والمصابون بوسواس قهرى تجاههم. هم لا يفكرون فى إيذائنا وإنما يعيشون حياتهم الطبيعية وفق مبادئهم وبحثا عن مصالحهم ويدوسون بأقدامهم على من يقف فى طريقهم، وليتنا نفعل مثلهم.

بالطبع فإن الانتقاد والسخرية موجودان فى الغرب وجودا ملحوظا، ولكنهما مسلطان على الجميع ولا يستثنيان دينا أو مقدسا. بل إن «الرموز» مثل رئيس الدولة أو بابا الفاتيكان أو حتى شخص المسيح هم أكثر من يتعرضون للازدراء والانتقاد. ففى سبيل تحرر أوروبا من سلطة الكهنوت وسلطة الكنيسة تعلم الأوروبيون أنه لا يوجد شىء أكثر قدسية من حياة الإنسان وحريته. وحتى لو كانت هذه الحرية تزيد عن الحد أحيانا وحتى لو كان الانتقاد يعكر صفو البعض، فإنهم اصطلحوا على أن هذه آثار جانبية لا بد من أخذها واحتمالها كجزء من «باكيج» الحرية التى لا غنى عنها. حاربت أوروبا طويلا من أجل إزالة الخطوط الحمراء، لأنه لا يوجد فكر حرا مع خطوط حمراء، ولا تقدم بلا فكر حر.

بالطبع ما زالت هناك بعض الخطوط الحمراء فى أوروبا، مثل الهولوكوست، فبعض دول أوروبا مثل ألمانيا وفرنسا تعتبر إنكار المحرقة جريمة عقوبتها الحبس. ولكنها خطوط حمراء من صنعهم هم وناتجة عن تاريخهم، فلم يفرضها عليهم أحد من الخارج. وخطوطهم الحمراء هذه ملزمة لهم وحدهم فلا يفرضونها علينا فى بلادنا.

يعيش فى أوروبا ملايين المهاجرين من الأجناس والديانات كافة، وهم يقبلون أن الدين لا يلعب دورا كبيرا فى المجتمع. ومعظم هؤلاء المهاجرين - فيما عدا مجموعة من المسلمين ومجموعة من اليهود - لا ينتظرون من الأوروبيين احترام مقدساتهم فى كل قول أو فعل.

أنا هنا لا أبرر أو أدافع عن إهانة قد تحدث ضد هذه المقدسات، ولكنى أحاول أن أوضح أن موجات الغضب الإسلامية فى مواجهة كل من يتعرض لمقدساتنا بالانتقاد أو الإهانة لا تأتى بنتائج إيجابية. نعم قد تؤدى مظاهرات بعض المسلمين إلى إلغاء مسرحية أوروبية فيها انتقاد لاذع للإسلام أو سحب عمل فنى من السوق لأنه صور الكعبة بصورة غير لائقة، ولكن ذلك لا يعنى أن من أوقف المسرحية أو سحب اللوحة صار يحترم الإسلام فجأة. بل إنهم يفعلون ذلك لأسباب أمنية لأنهم يعرفون من واقع تجاربهم أن الإسلاميين قادرون على تصفية من يتعارض معهم.

نعم لقد تعلمت أوروبا درسا بعد الرسوم الدنماركية المسيئة للرسول وصارت أكثر حذرا فى التعامل مع مقدسات المسلمين، فمعظم برامج التليفزيون صارت تستشير أساتذة فى الدراسات الإسلامية قبل أن تبث برنامجا عن الإسلام. وقدم بابا الفاتيكان شبه اعتذار عن كلمة ألقاها فى مدينة ريجينزبرج الألمانية عام 2006 اتهم فيها الإسلام بالميل للعنف وعدم العقلانية. حتى نادى شالكه الألمانى الذى صارت حوله ضجة كبيرة بسبب أغنية يرددها مشجعوه منذ عام 1963 تقول إن النبى لم يكن يفهم شيئا فى كرة القدم، تشاور مع المجلس الأعلى للمسلمين فى ألمانيا وأبدى استعداده لمنع الأغنية.

ولكن ذلك أدى عبر السنوات الأخيرة إلى احتقان، بل وكراهية تختفى داخل كثيرين تجاه كل شىء يمت للإسلام بصلة. فمن بين أكثر الكتب مبيعا فى ألمانيا هذه الأيام نجد كتبا بعنوان «انقدوا الغرب من الأسلمة» أو «نقد التسامح» أو «أحارب ضد الإسلام.. أحارب من أجل الحرية» وكلها تحذر من الاستكانة والرضوخ لطلبات المسلمين وتحث الأوروبيين على عدم تقديم تنازلات.

ربما صار الأوروبيين أكثر حذرا تجاهنا، لكن هذا الحذر نابع من الخوف لا الاحترام، فأنت لا تستطيع أن تفرض على الآخرين أن يحترموك بالصراخ، ولكن

بإمكانك أن تجبرهم على احترامك بإنجازاتك ومواقفك، تماما مثل الدلاى لاما زعيم البوذيين التبت الذى يحظى فى أوروبا بشعبية تفوق شعبية بابا الفاتيكان لأنه لم يَنْسَق لاستخدام العنف ضد الاحتلال الصينى لبلاده، بل يحث أتباعه دائما على ضبط النفس والتخلى عن العنف. وهو مع ذلك لم يتخل عن قضية بلاده ويجوب العالم لحشد الدعم لها.

أما نحن فما زلنا فى عيون غالبية الأوروبيين إما مجرد حفنة بارود قابلة للاشتعال لأتفه الأسباب أو مجموعة من الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة، فيجب ألا يستفزونا حتى لا نقذفهم بالحجارة. وهذا لم يخدم قضية واحدة من قضايانا، بل يسهم يوميا فى بعدنا عن العالم وبعد العالم عنا.

صرنا نشعر بالزعل لأتفه الأسباب، فلو أن طفلا أوروبياً يلعب نطق خطأ باسم النبى لاعتقدنا أنها مؤامرة، أو لو أطلقت مدرسة بريطانية اسم محمد على دب من قماش لقامت الدنيا ولم تقعد. صرنا نغضب لو انتقد مصرى قبطى الإسلام أو طالب مصرى بهائى بكتابة اسم ديانته الحقيقى فى بطاقته الشخصية. حتى تراثنا الأدبى صار يصيبنا بالزعل فتجرأت مجموعة من المحامين تطلق على نفسها اسم «محامون بلا قيود» على إقامة دعوة قضائية على وزارة الثقافة فى مصر بسبب إعادة طباعة «ألف ليلة وليلة» على اعتبار أنها عمل ماجن وغير أخلاقى.

لقد نسينا أن من يطالب الآخرين باحترام مقدساته لا بد أن يكون نفسه مثالا لاحترام مقدسات الغير.. انظر حولك عزيزى القارئ المسلم ثم فتش فى ضميرك أولا كيف تنظر إلى بقرة الهندوسى وتمثال بوذا والأناجيل وكتاب أقدس البهائى! هل فكرت مرة واحدة أن أسلوبك فى الكلام عن مقدساتهم قد يجرح مشاعرهم؟

ماذا حدث؟ وكيف وصلنا إلى الحضيض؟ فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى كانت تسود حالة من الثقة بالنفس، فلم يلتفت المسلمون حينها لنقد أو ذم غير المسلمين، بل إن الخليفة العباسى كان ينظم فى بلاطه مسابقات للهجاء ينتقد فيها شعراء اليهود والمسيحيين والمسلمين ديانات بعضهم دون أن يخشى أحد منهم أن يكون الموت أو النفى مصيره. لم يكن المسلمون يعاملون الأقليات على أنهم خطر؛ بل استفادوا من خبراتهم وأعطوهم فرصاً لتحقيق ذواتهم، فكان لذلك أثر بالغ فى تطور الثقافة والعلوم الإسلامية. وانتشرت فى تلك الفترة الحانات والأشعار الإيروتيكية وحتى أشعار الزندقة دون أن يخشى المسلمون على دينهم. أما اليوم فقدْ فقدَ المسلمون تلك الثقة بالنفس وصاروا ينظرون بعين الحذر والتوجس إلى كل ما هو غير إسلامى، فصاروا يضيقون الخناق على الأقليات الدينية ويزنون كل كلمة تأتى منهم على ميزان الذهب. كما صاروا يترقبون كل همسة تصدر عن الغرب.

وحالة الترقب وسوء الظن هذه صارت متبادلة بين الشرق والغرب. ولعل حادثة

مقتل مروة الشربينى المؤلمة بإحدى قاعات العدالة بألمانيا أحد الدلائل لنتائج حالة سوء الظن هذه. تألمت عند سماع الخبر ولكنى لم أتعجب، بل تعجبت أن مثل هذه الحادثة لم تحدث من قبل بهذه الصورة البشعة، رغم أن تجارة الخوف من كل ما هو عربى أو مسلم تجارة رائجة ورابحة فى ألمانيا منذ أحداث سبتمبر 2001. وبخاصة منطقة شرق ألمانيا التى وقعت فيها هذه الجريمة، تشتهر بمعاداة الأجانب، حيث إنها حديثة العهد باستضافة أصحاب البشرة الداكنة، فقد ظلت 40 عاما مغلقة خلف سور برلين وغارقة فى حلم شيوعى ساذج أفاقت منه على كابوسٍ إفلاس دولة ألمانيا الشرقية. وما زالت هذه المنطقة - حتى بعد عشرين عاماً من إعادة توحيد ألمانيا - تعانى من مشكلات اقتصادية كبيرة ونسبة بطالة عالية؛ مما مهد الطريق أمام أنصار النازيين الجدد للترويج لفكرة أن كثرة الأجانب هى السبب وراء وضعهم الاقتصادى المتدنى.

قد يكون هذا الخوف هو أيضاً نتاج صورة مرعبة يرسمها الإعلام الغربى بقصد أو دون قصد عن مخزون العنف فى المجتمعات الإسلامية، فلا يمر يوم واحد دون خبر عن إرهابى مسلم يفجر نفسه فى العراق أو باكستان، أو سائحين مختطفين فى اليمن أو قراصنة بحار من الصومال يحتجزون سفينة صيد.. وهكذا، الخوف وعدم الثقة بالمسلمين يحتقنان داخل الكثير من الألمان، وهذا الخوف هو أيضاً وليد مخاوف الألمان من تاريخهم منذ القرون الوسطى ومحاكم التفتيش مروراً بالحروب الدينية الضارية بين الكاثوليك والبروتستانت ثم الاجتياح العثمانى لأوروبا وانتهاء بألمانيا النازية وجرائمها أثناء الحرب العالمية الثانية. الألمان يخافون فى واقع الأمر من أنفسهم فى المقام الأول، ولكنهم يعكسون هذا الخوف نحو المسلمين، فيرون فيهم ما كانوا هم فى الماضى أو ما يخافون أن يصبحوا من جديد فى المستقبل. والمسلمون المقيمون فى أوروبا لا يسهمون فى نزع هذا الخوف من صدور الأوروبيين، بل يجاهر بعضهم بمناصرته للعنف ورغبته فى أسلمة أوروبا، بينما يبحث البعض عن تبريرات للتطرف والإرهاب.

كل هذا الخوف وسوء الظن والكراهية احتقنت عبر السنوات وتراكمت فى نفسية شاب ألمانى عاطل من أصل روسى فشل فى أن يجد حلاً لمشكلاته فراح يعكسها على الآخرين ويجعلهم وحدهم المسئولين عن ورطته. ضاقت به السبل فسقط فى عزلته ووقع فى شباك نظريات المؤامرة، وأخيراً صب جام غضبه على من لا يستحق. قصته تشبه قصة أى متطرف مسلم فى الغربة عجز عن الاندماج فتوجه للكراهية والعنف. ولكن لو كان هذا العنصرى قد ضرب أحد المسلمين المتطرفين، لقلنا «متطرف ضرب متطرف»، ولكن مروة كانت مثالاً حياً على أنه ليس كل من يرتدى الحجاب متطرفاً أو أصوليا.

والمكان الذى وقعت فيه الحادثة له رمزية كبيرة، فمروة لم تصفع أو تسب هذا الـ«ألكس» عندما وجه إليها شتائمه العنصرية، بل لجأت للقضاء الألمانى لأنها

تثق به، ولأنها كانت تعلم جيداً أنه لو كان كل الألمان عنصريين لما حصل زوجها على منحة دراسية من هذا البلد ولما عملت هى كصيدلانية هناك. وهذا القضاء الألمانى لم يخذلها فى البداية وعاقب المتهم بغرامة مالية وسماه وكيل نيابة دريسدن «عنصرى معاد للإسلام». ولكن شاءت الأقدار أن تسقط مروة غارقة فى دمائها فى المكان نفسه الذى استغاثت به وانتظرت منه العدل. لم يسعفها أحد فى قاعة المحكمة فى حين كانت ثمانى عشرة طعنة غادرة تخترق جسدها الهش. الدافع وراء هذه الجريمة كان بلا شك عنصريا ولكن سبب تخاذل من كانوا بالقاعة ليس كذلك - على حد تقديرى - بل إن الجبن واللامبالاة هما السبب، فالشهامة ونجدة الغريب - وهما من الفضائل التى نعتز بها فى الشرق - ليست من خصال الألمان، فقد اعتادوا أن يتفرجوا على المشاجرات حتى تأتى الشرطة.

ولكن الموضوع أكبر من مجرد سوء تفاهم، إنه تاريخ طويل من سوء الظن والخوف من الآخر. ولكن إذا كانت تجارة الخوف رائجة فى أوروبا، فإن تجارة الغضب أكثر رواجاً منها فى مصر، وكأننا ننتظر مثل هذه الحوادث المؤلمة من حين لآخر كى نصب غضبنا على الغرب، يؤلمنا ويحزننا الكثير فى داخل بلادنا، ولكن لا يحرك عواطفنا شىء أكثر من إهانة يوجهها الغرب لنا، بالطبع فإن الغضب رد فعل طبيعى ومفهوم على مثل هذه الفاجعة، ولكن المزايدات والمطالبة بعقاب جماعى لكل ألمانيا ومقاطعة بضائعها ليست إلا دليلاً على قلة حيلتنا وعدم فهمنا لأبعاد هذه الكارثة.

ألا نتذكر أن عدداً كبيراً من الألمان قتلوا فى مصر أكثر من مرة فى هجمات إرهابية على السائحين، ولكن لم يطالب أحد فى ألمانيا حينها بمقاطعة مصر أو بوقف السياحة إليها؟ من منا يعرف الطالبة الفرنسية «سيسيل فانيير»؟ إنها أيضا إحدى ضحايا الكراهية والتطرف، وقد لقت حتفها فى انفجار بحى الحسين قبل شهور من مقتل مروة فى دريسدن. لم تخرج المظاهرات بعدها فى فرنسا تطالب بالانتقام من مصر ولم تستغل جنازتها لسكب البنزين على النار. مروة وسيسيل هما رمزان لما وصلت إليه علاقة الشرق بالغرب!

اختارت مروة الطريق الصحيح وهو المطالبة بالعدالة، ولكنى للأسف أرى أن الكثيرين فى مصر يفضلون أن يسلكوا طريق المتطرف الروسى: العزلة ونظريات المؤامرة وصب الغضب الجماعى على من لا يستحق، وذلك للهروب من مشكلات أخرى ليس لها أدنى علاقة بمروة وقضيتها. بعد قليل نال الجانى عقابه المستحق وسوف ننسى مروة وقصتها عما قريب ونبحث عن ضحية أخرى نتباكى عليها. مثلما حدث فى فبراير 2010 حين لقى مهاجران مصريان مصرعهما فى الخارج. أحدهما لقى مصرعه فى إيطاليا على يد شاب من أمريكا الجنوبية والآخر فى السعودية برصاص مراهق سعودى. ويصف الصحفى حمدى الحسينى حالة الإزدواجية التى تعامل بها الإعلام المصرى مع القضيتين وصفاً دقيقاً. ففى حين

تم تناول قضيية «شهيد ميلانو» فى كل وسائل الإعلام لعدة أيام، لم ينشر خبر «قتيل السعودية» سوى فى سطور بسيطة ببعض الصحف. وفى حين استقبل كبار المسئولين جثة ضحية إيطاليا لم يسمع أحد عن وصول جثمان ضحية الأشقاء العرب. وهذه حالة من حالات كثيرة توضح أن الجانى عندنا أهم من الضحية، لأن ما يحركنا فى المقام الأول ليس التعاطف مع الضحية بل الغضب على الجانى!

معركة الرسوم المسيئة للرسول..
أو حوار مع عدو

كان يوم 30 سبتمبر عام 2005 يوماً هاماً فى حياتى، فقد عقدت قرانى على زوجتى الدنماركية فى مصر دون أن أدرى أن نفس اليوم شهد فصلاً جديداً من فصول صراع الحضارات. ففى نفس اليوم نشرت صحيفة «يولان بوستن» فى كوبنهاجن اثنا عشر رسماً كاريكاتيرياً أساء بعضها لشخص النبى. عمت ثورة هائلة أرجاء العالم الإسلامى وانتشرت المظاهرات وأعمال العنف التى راح ضحيتها 150 شخصاً. شعرت عائلتى فى مصر بالحزن لأن بلد زوجتى جرح مشاعر المسلمين وأهان الرسول، بينما شعرت عائلة زوجتى فى الدنمارك بالحزن لأن المسلمين يحرقون أعلام الدنمارك ويريدون عقاباً جماعياً لبلد بأكمله بسبب جريدة دنماركية لا يقرأها الكثيرون. وهكذا وصل صراع الحضارات إلى غرفة معيشتى. ولكن تضامنى كان بطبيعة الحال مع عائلتى المصرية ومع جميع مسلمى العالم، فقد شعرت أيضاً بالغضب من بعض الرسوم ولم أرَ وراءها سوى رغبة واضحة فى الاستفزاز. ولكن مع مرور الوقت تحول غضبى من الرسوم إلى غضب على غضب المسلمين من الرسوم. فقد لاحظت أن موجات الغضب هذه صارت تأخذ أبعاداً مرضية لا علاقة لها بالمشاعر الدينية، بل صارت مثل تفريغ شحنات مسمومة فى مياه الشرب.

وفى أغسطس 2008 كنت فى زيارة لمدينة كوبنهاجن فطلبت لقاء فلمنج روز، رئيس القسم الثقافى بجريدة «يولان بوستن» وصاحب فكرة وقرار نشر الرسوم. كنت أنتظر أن يأتى إلىّ فى حماية الشرطة، ولكنى فوجئت بشاب بشوش يأتى على دراجة. جلسنا بأحد مقاهى كوبنهاجن فدار بيننا حوار طويل استكملناه فيما بعد فى الجريدة، وجاء الحوار كما يلى:

*** السيد روز، صحف اليسار بأوروبا تطلق عليك لقب «متعصب متطرف من أجل حرية التعبير» فما قولك؟**

- يوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانى الأسبق هو من أطلق علىّ هذا اللقب بعد نشر الرسوم التى شخصت النبى محمد فى جريدتنا. ثم تبنت بعض صحف اليسار

هذا اللقب لأنها كانت ضد نشر الرسوم.

* هل يعجبك هذا اللقب؟ وهل يصف حقيقتك؟
- نعم، أنا متعصب لحرية الرأى ولكن ليس كما يفهم اليساريون. أنا أدافع وبقوة عن حرية الكلمة لأنى أؤمن أن العنف يبدأ عندما يتوقف الكلام.

*** ولكن هل يمكن لحرية الكلام أن تكون مطلقة بلا حدود؟**
- بالطبع لا.. لا يوجد شىء بلا حدود. نحن دائما بحاجة لحدود ولكن لدينا منها الكثير الآن، ونحن نحتاج لخطوط حمراء أقل بقدر الإمكان. لأن كل دكتاتور يستغل الخطوط الحمراء ليفرض رأيه على الآخرين. نحن بحاجة للتفاوض حول هذه الحدود فيما بيننا، ولعل رسوم الكاريكاتير كانت بداية لهذا التفاوض ومؤشرا مهما لحالة حرية الفكر والرقابة الذاتية التى يفرضها الكتاب والفنانون على أنفسهم.

*** إذن كيف نتعامل مع قضية التصادم بين حرية التعبير واحترام مقدسات الغير؟ ومن يمتلك الحق فى خلق الخطوط الحمراء أو إذابتها؟**
- من الممكن أن نعقد مع بعضنا صفقة أن تحترم أنت كل مقدساتى ولا تذكرها بسوء، فى مقابل أن أحترم أنا كل مقدساتك ولا أتعرض لها بالسب أو الانتقاد. نظريا هذه طريقة جيدة، ولكنها صعبة التنفيذ على أرض الواقع وتتنافى مع طبيعة البشر. فما أكثرها مقدساتى ومقدساتك ومقدساته، وكم تُستغل هذه المقدسات كذريعة للضغط والابتزاز. وإذا أردنا أن نحيا حياة طبيعية خالية من التشنج فعلينا أن نقلل من الخطوط الحمراء لا أن نزيد منها. وعلينا أن ننتبه إلى أن المستبدين يستغلون هذه الخطوط لإسكات معارضيهم.

*** قلت إن العنف يبدأ عندما يتوقف الكلام، ولكن ماذا عن مشاعر الناس التى يجرحها الازدراء والسخرية من الأديان؟ ألا يكون الكلام هنا استفزازا للعنف؟**
- الحل ليس أن نشدد قوانين الازدراء، ولكن أن يتعلم الناس أن يأخذوا النقد أو حتى الازدراء ببساطة وألا يسمحوا لمشاعرهم أن تثور على كل كبيرة وصغيرة. أنت لا تستطيع أن تتحكم فى ما يقوله الآخرون، ولكن بإمكانك أن تتحكم فى رد فعلك على ما يقولون.

*** قلت إنك مقتنع بوجود حدود لحرية الكلام، أين تقع هذه الحدود من وجهة نظرك إذن؟**
- من وجهة نظر قانونية يمكن حصرها فى ثلاثة حدود:
أولا: الدعوة الصريحة إلى العنف.
ثانيا: تشويه سمعة إنسان عن طريق تزييف الحقائق.
ثالثا: نشر أخبار حساسة عن الحياة الخاصة للأفراد.

وما عدا ذلك فهو مسموح.

*** وماذا عن الدعوة للكراهية أو للعنصرية؟**
- لا أعتقد أننا بحاجة لقانون ضد الدعوة للكراهية أو ضد العنصرية، فعلينا دائما أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فقط عندما تترجم الأقوال لأفعال يمكن للقانون أن يتدخل. وسأعطيك مثالا: بعد نشر الرسوم وقفت مجموعةٌ من المتظاهرين المسلمين بـ«لندن» أمام السفارة الدنماركية وهم يحملون لافتات كُتب عليها «اقتلوا من يسب الإسلام». من حق المتظاهرين أن يكتبوا ذلك من وجهة نظرى، ولكن حينما يلقى أحدهم بعبوة ناسفة داخل السفارة، فلا بد للشرطة أن تتدخل وتعاقبه.

*** أفهم من كلامك أنك ضد تجريم إنكار الهولوكوست فى أوروبا؟**
- نعم.. أنا ضد أى عقوبة قانونية لمن ينكر الهولوكوست، وقد قلت ذلك من قبل وواجهت انتقادات عنيفة من إسرائيل ومن داخل أوروبا. إنكار الهولوكوست بصفة عامة لا يعتبر جريمة فى نظرى، ولكن الجريمة أن تصف شخصا نجا من عذاب المعسكرات النازية بأنه كاذب أو مدع، فذلك يدخل تحت بند تشويه السمعة والتشنيع. وبمناسبة موضوع التشنيع، قيل عنى فى بعض الصحف العربية إنى يهودى وهذا غير صحيح.

*** دعنا نعود لموضوع نشر رسوم الكاركاتير.. كيف جاءت إليك الفكرة وماذا كان دافعك من وراء نشرها؟**
- فى منتصف سبتمبر 2005 كتب الكاتب «بلوتجن» كتابا يسرد فيه قصة حياة النبى محمد فى كتاب للأطفال، وقال إنه لم يجد رسام كاريكاتير لرسم النبى، لأن كل الرسامين كانوا يخافون من غضب المسلمين، خصوصا بعد أن اغتال متطرف مغربى المخرج الهولندى «تيو فان جوخ» فى عام 2004 لأنه أخرج فيلما ينتقد فيه وضع المرأة فى الإسلام. كما ضرب طلاب مسلمون فى الدنمارك أستاذا جامعيا غير مسلم ضربا مبرحا لأنه رتل القرآن أثناء محاضرته. وتزايدت الحالات التى أحجم فيها المبدعون عن الإدلاء بآرائهم خوفا من ردود أفعال المسلمين.
لم أكن أعلم ما إذا كان الخوف من المسلمين فى الدنمارك مبررا، كما لم أكن أعلم ما إذا كانت الرقابة التى يفرضها الكتاب والفنانون فى الدنمارك على أنفسهم بعد مقتل «فان جوخ» مبالغا فيها أم لا. ومن هنا جاءت إلىّ فكرة نشر رسم للنبى محمد فى صحيفتنا لجس النبض ومراقبة ردود الأفعال. وبعدها عقدنا اجتماعا لأسرة التحرير بالجريدة، اقترحت فيه عمل مسابقة يرسم فيها فنانو الكاريكاتير النبى محمد كما يرونه، ونشرت الأعمال الاثنى عشر الفائزة.

*** أى أن المشروع كان مجرد تجربة معملية؟**
- يمكنك أن تقول إن نشر الرسوم كان بداية لتقرير صحفى موسع بناء على

تحريات ومراقبات طويلة. فقد بينت الرسوم حقيقة كانت غائبة عن الأذهان، وهى أن هناك حالة من التوتر وسوء الظن والخوف تسود الأجواء. لم تخلق الرسوم واقعا جديدا ولكنها كانت بمثابة «ترمومتر» لجس حرارة الواقع الموجود بالفعل. وهناك مبدأ فى الصحافة يقول: لا تقل لى الحقيقة ولكن أرنى إياها!

*** وما هى هذه الحقيقة؟**

- أولا أن الخوف كان حقيقياً ومبرراً لأن الكثيرين فى العالم الإسلامى ردوا بغضب وعنف شديدين. وثانيا أن حرية التعبير فى أوروبا بدأت تتآكل بسبب هذا الخوف.

*** هل فوجئت بردود الأفعال فى العالم الإسلامى؟**

- العالم كله فوجئ. ولكن ردود الأفعال هذه لم تكن تلقائية كما يزعم البعض. لم تأت المظاهرات إلا بعد أسابيع من نشر الرسوم بعد أن سافر بعض رجال الدين الإسلامى المقيمين بالدنمارك إلى بعض الدول الإسلامية وعرضوا الرسوم على المسئولين واشتكوا من أنهم مضطهدون فى الدنمارك وهذا افتراء. وأعتقد أنه تم استغلال مشاعر المسلمين الدينية لأغراض سياسية وللفت الأنظار عن قضايا أخرى. هل تستطيع أن تخبرنى من أين جاء المتظاهرون فى العالم الإسلامى بهذا الكم الهائل من الأعلام الدنماركية لحرقها؟ من حقى أن أعتقد أن هناك تدبيرا مسبقا وراء ذلك؟

*** بمناسبة التدبير المسبق، هناك نظرية أخرى تقول إن الرسوم من تدبير إدارة الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش، وحيثيات هذه النظرية هى: أن بوش كان بحاجة للحصول على ميزانية إضافية من الكونجرس للحرب ضد الإرهاب وجاءت ردود الأفعال الإسلامية على الرسوم لتدعم وجهة نظره من أن المسلمين عنيفون. ثانيا هناك إشاعات عن وجودك فى واشنطن قبل نشر الرسوم وبعدها مباشرة، فما قولك؟**

- أقول إن هناك أناسا لا عمل لهم إلا اختراع نظريات المؤامرة. وهذه هى حيلة من هو غير قادر على الحوار. أنا اتخذت قرار نشر الرسوم من خلال مسئوليتى كمحرر ثقافى وفى نطاق حرية التعبير التى يكفلها القانون، ولست مسئولا عمن استفاد أو تضرر من ذلك. نعم كنت فى واشنطن فى أواخر 2004 ولكن لتغطية الانتخابات الأمريكية كصحفى. نعم سافرت إلى واشنطن بعد نشر الرسوم ولكن من أجل العمل، ولعلك تعلم أنى عشت فى واشنطن لثلاثة أعوام كنت أعمل فيها مراسلا لجريدة «برلينسكى تيندى».

*** نعم أعلم ذلك، وأعلم أيضا أنك عملت مراسلا لنفس الجريدة فى موسكو قبل وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى. فهل أثرت إقامتك فى موسكو على موقفك من حرية التعبير؟**

- نعم أثرت فىّ بشكل كبير. فقد رأيت ديكتاتورية الشيوعية وهى تفرض على الناس كيف يفكرون وكيف تراقب تصرفاتهم وتعاقبهم على ما يقولون، وحتى على ما يوجسون فى ضمائرهم. وتعلمت أن الصمت لا يزيد الديكتاتور إلا استبدادا. ومن هنا تعلمت ألا أصمت أبدا وأن أقول رأيى صراحة دون أى خوف من العواقب، لأن الخوف من المستبد يزيد من وحشيته.

*** ألا تشعر بالخوف أحيانا ولو للحظات؟**

- لا.. ولا أرى داعياً لذلك، بدليل أنى لست تحت حراسة الشرطة، ولكن زوجتى بالطبع خائفة طوال الوقت.

*** قبل نشر الرسوم، كانت الدنمارك تتمتع بصورة إيجابية فى ذهن العالم عامة والعالم الإسلامى خاصة. كنا نرى الدنمارك كبلد صغير مسالم وليبرالى. ألا ترى أنك جازفت بسمعة الدنمارك بنشرك للرسوم؟ وهل فقدت الدنمارك عذريتها؟**

- نعم فقدت الدنمارك عذريتها، وهذا حسن. لأن الدنمارك ليس مجتمعا مثاليا، وقد آن الأوان أن يعلم الدنماركيون ذلك. فلطالما كنا نشير بأصابع الاتهام نحو دول أوروبية مجاورة ونتهمها بالتقصير فى التعامل مع قضايا المهاجرين وحوار الثقافات، وقد أفقنا بعد نشر الرسوم ورأينا أننا أيضا لم نبذل الجهد المرجو فى هذه القضايا.

*** علاقة الدنمارك بالعالم الإسلامى توترت كثيرا بعد الرسوم، فكيف صارت علاقة الدنمارك بالمهاجرين المسلمين الذين يعيشون هنا؟**

- الدنمارك بلد ليست له تجارب استعمارية وهو، على عكس فرنسا وإنجلترا وهولندا، حديث العهد بالهجرة واختلاط الأجناس. كما أن معظم المسلمين فى الدنمارك لم يأتوا من أجل العمل بل جاءوا كلاجئين، ولديهم مشكلات كثيرة فى التأقلم والتعليم والبطالة. وقد كان من السهل فى الماضى أن ندّعى أننا ليبراليون ومسالمون نظريا، ولكن علينا الآن أن نثبت ذلك على أرض الواقع. أثبتت الرسوم أن هناك فجوة كبيرة بين المهاجرين المسلمين والمجتمع الدنماركى، فعلى الرغم من أن المسلمين هنا لم يردوا بالعنف فإن هناك سوء ظن وتوترا واضحين من الجانبين، وعلينا أن نتخذ خطوات واضحة لتخفيف التوتر وكسر العزلة والبحث عن أسلوب أفضل للتعايش. ولعل قضية الرسوم فتحت باب الحوار بيننا وبين المسلمين مما سيكون له نتائج إيجابية على المدى البعيد.

*** تتحدث كثيرا عن الجوانب الإيجابية، ألا ترى الجانب السلبى؟ وهل لم تندم ولو للحظة واحدة لنشر الرسوم؟**

- سأكون كاذبا لو قلت إنى أرى أن كل نتائج نشر الرسوم كانت إيجابية. بالطبع تسببت الرسوم فى مشكلات كنا جميعا فى غنى عنها، ولكنها أبرزت مشكلات

أخرى أشد خطورة وعلينا الآن مواجهتها، مثل مشكلة صراع الحضارات. وأنا لا أرى هذا الصراع بين الغرب والإسلام، بل أراه بين كل من يؤمن بالحرية ويسعى لها سواء كان مسلما أو غربيا وبين كل من لا يؤمن بها ويحاربها سواء كان مسلما أو أوروبيا.

*** السيد فلمنج روز، هل سبق لك أن زرت بلدا عربيا من قبل؟**
- نعم دُعيت منذ فترة لحضور مؤتمر فى قطر، كما سافرت لرام الله لزيارة قبر ياسر عرفات.

*** لو وُجهت إليك الدعوة لإلقاء محاضرة بالقاهرة لتوضيح وجهة نظرك هل ستوافق؟**
- سأكون سعيدا جدا، وفى انتظار الدعوة، فكما قلت لك من قبل «العنف لا يبدأ إلا إذا توقف الكلام».

كان من الصعب على أن أتخيل أن هذا الشاب الخجول الذى يتكلم بعقلانية شديدة كاد يتسبب فى نشوب الحرب العالمية الثالثة حين نشر الرسوم. لم يغير كلامه نظرتى للرسوم ولكنه غير موقفى من مفهوم حرية التعبير. تذكرت بعد حديثى مع روز مقولة فولتير الشهيرة «قد لا يعجبنى كلامك، ولكنى لا أزال مستعداً أن أضحى بحياتى كى تقول رأيك بحرية». نعم لقد كان ذلك موقفى الجديد من الرسوم بعد أن استمعت لكلام روز، وأعلم أن ذلك لن يعجب الكثيرين. ولكننى أدركت أننا نعيش اليوم فى عالم لا يمكن أن نحرم فيه التهكم أو السخرية من أى شخص مهما كانت قدسيته وأن الحل ليس صناعة الكمامات وإسكات الأصوات الساخرة، بل أن نتعلم كيف نتعامل مع السخرية بهدوء واسترخاء.

لم ينته الأمر عند ذلك الحد، بل ذهبت إلى مرسمٍ «كورت فسترجارد» صاحب أشهر الرسوم المسيئة للنبى وأجريت معه حواراً للتلفزيون الألمانى بعد محاولة اغتياله الفاشلة على يد شاب صومالى يتمتع باللجوء الإنسانى فى الدنمارك. تحدثت معه عن صورة النبى والقنبلة العالقة فى عمامته وما يقصد بها، فحكى لى قصة الرسام بيكاسو الذى استوقفه جنود النازى وسألوه إذا كان هو من رسم لوحة «الجورنيكا» الشهيرة، فابتسم بيكاسو وقال: «بل أنتم الذين رسمتموها». وكانت عبارة بيكاسو إشارة إلى دور النازيين فى الحرب الأهلية الإسبانية التى تعبر لوحة «الجورنيكا» عن بشاعتها. ما أراد فيسترجارد أن يقوله إنه ليس من صور النبى بهذا الشكل ولكن المسلمين المتطرفين الذين يفجرون أنفسهم هم من يعطون هذا الانطباع عن دينهم وعن نبيهم.

ذكرنى تشبيه فيسترجارد بحوار دار بينى وبين صديق مسلم حول تلك الصورة حيث قال لى: «أنا على استعداد لقبول هذا الرسم لو كان دون قنبلة»، فرددت

عليه حينها: «إذن فانزع القنبلة بنفسكٍ! أليس الأمر بأيدينا نحن المسلمين؟ ألا يمكن أن ننزع فتيل قنبلة التطرف بأنفسنا بدلاً من أن نبحث عن مبررات وأعذار للأفعال الإجرامية التى تُرتكب باسم الإسلام؟».

لا ثورة ولا يحزنون..
أو الإله.. الحاكم.. الوطن

نجحت الثورات الفرنسية والإنجليزية والروسية لأنها كانت قادرة على حشد عدد هائل من البشر. كان معظم من ساندوا تلك الثوٍرات الثلاث من العمال والفلاحين، فكان سقوط النظام الأرستقراطى لا يمثل خطراً على أرزاقهم، لأنهم كانوا يعيشون

فى عالم آخر غير عالم الطبقة الحاكمة. أما الثورة الألمانية التى جاءت فى عام 1918 فقد باءت بالفشل، لأن المجتمع الألمانى كان مدنياً وصناعياً فى ذلك الوقت، كما كانت هناك طبقة متوسطة مستقرة؛ مما جعل الشعب تحت رحمة النظام الحاكم، فالدولة هى التى كانت تمد المواطن بالعمل ومياه الشرب والكهرباء والدواء، وجميع المرافق التى كان المواطن الألمانى يستخدمها كانت بأيدى الدولة؛ مما جعل الثورة لا تتعدى إطار مجموعة من المثقفين.

والوضع هنا مشابه لحالة العالم الإسلامى المعاصر. فعلى الرغم من أن الشعوب الإسلامية تعيش فى وادٍ وحكامها فى وادٍ، فإن تلك الشعوب تعتمد اعتماداً كلياً على حكوماتها فى توفير العمل والمواد الغذائية ومتطلبات الحياة كافة. والمواطن المسلم لا يعتمد فقط على نظام السلطة، ولكنه أيضاً يعتمد على نظام الفكر الدينى الذى يعوق فكرة الثورة على الحاكم، وبخاصة فى فكر أهل السنة. ولارتباط السلطة بالدين فى الإسلام قصة طويلة تبدأ بهجرة الرسول للمدينة.

نجح الرسول فى مصالحة الفكر المسيحى بشرائع القانون اليهودى وبعض طقوس وعادات العرب قبل الإسلام مثل طقوس الحج التى لم يغيرها الإسلام. وقد ناسب هذا الخليط مزاج الكثيرين فى الجزيرة العربية مما يفسر الانتشار السريع للإسلام فيها بعد الهجرة للمدينة. ولكن كتب السيرة تحاول أن تنكر أى تأثير مسيحى أو يهودى على أفكار الرسول وعلى الطقوس الإسلامية. ففى حين تفرد كتب السيرة والحديث صفحات عديدة عن حياة أشخاص لم يكن لهم ثقل كبير فى صدر الإسلام مثل أبو هريرة، نراها تتجاهل أشخاصا ذوى أهمية بالغة مثل ورقة بن نوفل الذى عقد قران الرسول على زوجته الأولى خديجة، وكان هو من أكد لمحمد أنه نبى هذا الزمان بعد أن رأى ما رأى فى الغار. وما عدا ذلك لا نجد عن ورقة ما يصف مدى قربه من الرسول وتأثيره عليه، وكأن كتب الإسلام الأولى تعمدت تجاهله.

وقد أفسح ذلك الصمت حول شخص ورقة المجال لاستفحال النظريات حول طبيعة علاقة ورقة بالرسول ودورها فى نشأة الإسلام. فقد نشر باحث لبنانى يكتب تحت اسم «أبو موسى الحريرى» كتاباً بعنوان «قس ونبى» منذ سنوات يدعى فيه أن ورقة كان يريد تأسيس ديانة مسيحية عربية جديدة تختلف عن مسيحية روما والإسكندرية، وكان ورقة بصدد ترجمة الإنجيل العبرانى إلى العربية وهو إنجيل لا يعترف بألوهية المسيح ويراه نبياً من أنبياء الله. ويسترسل الكاتب فى تكهناته فيدّعى أن ورقة كان كبيراً فى السن ولم تكن لديه القدرة على الخطابة؛ فى حين أن محمد كان شاباً له مصداقيته وقدرته على الإقناع. وحسبما يرى الحريرى، فإن محمد أيضاً كان ثائراً اجتماعياً وكان موحداً يريد أن يغير مجتمعه فى مكة وينهى عبادة الأصنام. وهكذا، يقول الحريرى، اختلطت أحلام القس بأحلام النبى واختلطت النصوص فظهرت السور الأولى للقرآن التى كانت

تحترم المسيحيين وخصوصا القسيسين منهم. ويعتمد الكاتب فى نظريته على جملة واحدة من صحيح البخارى جاء فيها «ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى»، وهى محاولة لإثبات علاقة موت القس بتوقف نزول الوحى على الرسول.

وفى دراسة أخرى صدرت بالألمانية عام 2000 يذهب الباحث الذى يكتب تحت اسم «كريستوف لوكسمبورج» إلى أن نص القرآن يحتوى على عباراتٍ مسيحية سريانية وآرامية قديمة أساء المفسرون العرب فهمها، ويعطى مثالاً على ذلك بكلمة «حور عين» التى يفسرها المسلمون على أنها حوريات الجنة؛ فى حين أن معناها بالسريانية هو «عنب أبيض». كما يقارن الكتاب بين سورة «القدرِ» وترنيمة مسيحية قديمة عن المسيح، ويقول إن المقصود بـ«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ليس القرآن وإنما مولد المسيح الذى واكبه نزول الملائكة والروح القدس. ويعطى أمثلة أخرى مثل كلمة فرقان المأخوذة عن كلمة فرقانو السريانية التى تعنى «الخلاص»؛ وهو مفهوم مسيحى لم يعرفه عرب الجاهلية. والنظرية النهائية التى يذهب إليها الكاتب هى أن أجزاءً من القرآن مبنية على نصوص مسيحية وأغانى شفهية قديمة.

وبغض النظر عن أن مثل هذه النظريات أشبه بفيلم «دافنشى كود»، فلا بد من مواجهتها بمنهجية وعقلانية، لا بالصراخ واللعنات. فلا يوجد حتى الآن عالم لغوى مسلم واحد تصدى لدراسة «لوكسمبورج» لأنه لا يوجد من يتقن اللغات السريانية والآرامية القديمة بين المسلمين، رغم أنها هى اللغات التى انبثقت عنها اللغة العربية. ولكن اكتفى البعض بوصف الدراسة على أنها إفك وإدعاء، دون حتى أن يقرأوها. وعلى الرغم من اختلافى مع نتائج تلك الأبحاث، فإنه من الجائز أن أذكر بما كتبه نصر حامد أبو زيد فى كتاب «مفهوم النص» أن النص مهما كانت قدسيته هو نتاج ثقافة عصره ويستخدم لغة البيئة المحيطة به ويتأثرٍ بها. فعلى سبيل المثال، عندما يصف القرآن الجنة للمؤمنين نجده يستخدم وصفاً يتوافق مع أحلام العربى الصحراوى، فالجنة بها فواكه ولحم طير وظلال وليس بها شمس. ولو أنى وصفت تلك الجنة لصديق نباتى من شمال أوروبا لقال «آسف لا أريد أن أدخل تلك الجنة لأنى أحب أن أستلقى فى الشمس ولا أحب أكل اللحوم».

بل أذهب إلى ادعاء أن النص القرآنى، خصوصا فى الفترة المدنية، كان عبارة عن حوار أو تفاوض بين المؤمنين والرسول، فكانوا يأتون للرسول بأسئلة عن الميراث والزكاة والمحيض وغيرها فيجيبهم الوحى بآيات من القرآن، لذا فنجد أن آيات كثيرة من تلك الفترةٍ تبدأ بـ«ويسألونك عن...... قل.......». وهذا يعنى أن المسلمين أنفسهم كانوا طرفاً من أطراف الوحى فى المدينة.

ولا شك أن لغة القرآن تغيرت بشكل ملحوظٍ بعد هجرة الرسول إلى المدينة. فقد كانت خمس قبائل يهودية تعيش فى المدينة وفقاً للقانون اليهودى «هالاخا»، وهى

كلمة ترجمتها الحرفية للعربية «شريعة». ولا شك أن الفكر التشريعى اليهودى أثر بوضوح على فهم المسلمين للشريعة، ففكرة الصوم، وتحريم لحم الخنزير، وتجنب النساء فى المحيض، والتطهر من الجنابة، ورجم الزانى والزانية، والصلاة فى اتجاه بيت المقدس... كلها أعراف يهودية. وقد وصف القرآن اليهود فى البداية بأنهم أهل الكتاب وأشاد بعلماء بنى إسرائيل، ولكن بعد أن أخل اليهود بعهودهم مع النبى ولم يقفوا بجانبه ضد أعدائه من مكة تغيرت لغة القرآن تجاههم وصارت تتهمهم بتحريف التوراة ثم سمتهم قردة وخنازير. ثم جاءت بعض التشريعات الإسلامية الجديدة التى كانت موجهة بصورة مباشرة ضد أشغال اليهود مثل تحريم الخمر والربا. ثم تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وبهذا تحرر الإسلام من التأثير المسيحى واليهودى بعض الشيء وعاد رويداً رويداً لمفهوم القبيلة.

ولكن عندما عاد الرسول إلى مكة فاتحاً لم يقل لأهلها «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ» كما قالها حين كان من المستضعفين، بل حطم الأصنام التى كانت حول الكعبة وداخلها وفرض الإسلام على أهل مكة. كما استخدم الفكر القبلى حينما قال «من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن». وهذا يوضح أن النبى كان يتعامل بمرونة مع البيئة المحيطة به وكان يغير استراتيجيته حسب المتغيرات المفروضة عليه. والشيء نفسه ينطبق على نص القرآن الذى كان مرناً وتفاعلياً وقريباً من حياة الناس وقضاياهم، ولم يكن جامداً كما يحب البعض اليوم أن يروه. ولو أننا تعاملنا اليوم بنفس روح المرونة مع النص القرآنى ومعطيات العقيدة لتوصلنا لحلول كثيرة قد تصالحنا مع مفهوم الحياة العصرية.

وتوفى الرسول تاركاً قرآناً غير مكتوب وآلاف الأحاديث غير الموثقة التى كانت تعطى للمسلم تعليمات لكل موقف من مواقف الحياة حتى وهو داخل المرحاض. ولكن لا القرآن ولا الأحاديث حسمت قضية الحكم فى الإسلام، فلا سمت الخليفة الذى سيحكم المسلمين بعد وفاة الرسول ولا ذكرت شروط توليه الحكم. وكان لذلك أثر بالغ فى انقسام المسلمين بعد عدة سنوات من وفاته واختلافهم حول أحقية عثمان بالحكم. واحتدم الخصام فى عهد على بن أبى طالب وانتهى بالفتنة الكبرى وانفصال الشيعة. وقد سببت تلك الحرب الأهلية حالة من الـ«بارانويا» لدى أهل السنة الذين راحوا يفتشون فى أحاديث الرسول عن كل ما يؤيد طاعة الحاكم وإن زنى وإن سرق حتى يتجنبوا الفتنة والشقاق.

وقد وجاء الفكر السنى على هوى سلاطين بنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة وكانوا فى أمسّ الحاجة لمن يضفى الشرعية على حكمهم المبنى على مبدأ التوريث ولا علاقة له بالشورى أو بالبيعة. ومنذ ذلك الحين فإن الدعاء للحكام والسلاطين من فوق المنابر جزء لا يتجزأ من صلاة الجمعة. ومع مرور الزمن تطور مبدأ حاكمية الله على الأرض فى عهد العباسيين والفاطميين وهو مبدأ كان يعرفه الفرس والمصريون القدماء، ويقول إن الله يحكم من خلال الحاكم الذى يعتبر روح

الله أو ظله على الأرض، وهكذا صار اسم الحاكم واسم الله ملتصقين عند بعض السلاطين مثل المعتصم بالله والمنتصر بالله والحاكم بأمر الله. «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ»، و«أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، و«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».. كانت آيات يستخدمها كل حاكم كى يثبت سلطته ويخرس أصوات معارضيه. ربما يفسر ذلك تاريخ الدكتاتورية فى بلدان المسلمين وغياب الثورات من أراضيهم عبر التاريخ. ومن ينظر اليوم إلى معظم حكام المسلمين سيجد أنهم يقلدون الإله المعصوم الذى لا يقبل شريكا فى الملك ولا يُسأل عما يفعل.. يدخل من يشاء فى رحمته.. يحيى ويميت.. وهو على كل شىء قدير.

وهكذا صار الدين يُشكَّل على هوى الحاكم فكان الإسلام دين الخلافة فى زمن العثمانيين، ثم صار اشتراكيا فى عصر عبد الناصر، كما كان دين حرية الملكية الشخصية وصارت فوائد البنوك حلالاً فى زمن الانفتاح، وكان دين الجهاد قبل حرب أكتوبر ودين السلام بعد كامب ديفيد. ولكنه لم يكن أبداً دين الثورة على الحاكم، إلا فى حالة واحدة فقط فى التاريخ الإسلامى.

سألنى قبل ثلاثة أعوام صحفى ألمانى عن أقرب الدول الإسلامية للإصلاح الدينى والسياسى من وجهة نظرى، فأجبت دون تردد «إيران». تعجب الصحفى من جوابى جداً، فقد كان ينتظر إجابة مثل «مصر» أو «تونس» أو «لبنان»، حيث إن هذه الدول تبدو أقرب للحداثة والديمقراطية من دولة ثيوقراطية مثل إيران التى يحكمها معممون باسم الله. تلك الدولة التى ترتبط فى أذهان الكثير من الأوروبيين بالإرهاب والسلطوية الدينية وقمع الحريات. عللت إجابتى له بعدة حجج، أولها أن الفكر الشيعى يسمح بالثورة على الحاكم على عكس الفكر السنى، فالحركة الشيعية وأفكارها ولدت كثورة.

ثانياً فإن النظام السياسى والنظام الدينى فى إيران اليوم يمثلان كياناً واحداً له رأس وله ذيل ويمكن تعقبه والإمساك به، تماماً مثل نظام الـ«إكليروس» الكنسى فى عصور أوروبا الوسطى الذى أسقطه التنوير. أما الإسلام السياسى فى معظم الدول «السنية» فمثل «قرموط» مراوغ يصعب الإمساك به، فله ألوان وأسماء عديدة، فهناك إسلام بن لادن وإسلام الأزهر وإسلام الوهابيين وإسلام الإخوان وإسلام خالد الجندى وإسلام عمرو خالد وإسلام الشيخة ملكة زرار.. و«على كل لون يا باتستا.. لو عايز إسلام إرهابى عندنا، ولو عايز إسلام مستتير برضه موجود، ولو عايز إسلام جهادى ليبرالى ممكن نجيب لك»! ولا توجد مؤسسة دينية مركزية واحدة بفكر دينى واحد يمكن إصلاحها أو تنحيتها عن الحكم. بل إن حاكمية الإسلام السياسى ما زالت حلماً فى معظم الدول الإسلامية التى لم تخض تجربة الدولة الدينية بعد. فيقول الإسلاميون، ويصدقهم الكثيرون، «جربنا الأنظمة الغربية المستوردة، الاشتراكى منها والرأسمالى، وغرسناها فى تربتنا فلم تنبت ولم تثمر،

وقد آن الأوان أن نغرس فى تربتنا ما يتناسب مع درجات حرارتنا». منطق واضح منتهاه أنه لا بديل إلا النظام الإسلامى. أما فى إيران فإن حاكمية الله لم تعد حلماً؛ وإنما صارت كابوساً أفاق منه شعب وعدته الثورة الإسلامية طوال ثلاثين عاماً أنهاراً من عسل ولبن.. ولم تبر بوعودها. وقد ضاق شباب إيران ذرعاً بهذه الوعود وصاروا يفكرون بمنطق المصلحة السياسية لا وفق أيديولوجية بعيدة عن الواقع. الإيرانيون أيضاً جيران الأفغان ويرون عن كثب العواقب المأساوية لتولى طالبان السلطة وحكمهم بـ«شرع الله».

وسبب آخر هو علاقة إيران بتاريخها قبل الإسلام، حيث ما زال الإيرانيون يفتخرون بهذا التاريخ ويطلقون أسماء فارسية قديمة على أبنائهم، فى حين ينظر معظم المسلمين السنة إلى عصور ما قبل الإسلام على أنها عصور جاهلية وظلامية محاها الإسلام بنوره. وعلى الرغم من أن الإيرانيين بدأوا فى استخدام الحروف العربية بعد اعتناقهم للإسلام؛ فإنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية ورفضوا تعريبها؛ مما سمح لهم بالاحتفاظ بتراثهم القديم. وكانت أول الأعمال التى كتبها الفرس بعد اعتناقهم الإسلام هو كتاب «الشاهنامة» الذى يمجد تاريخ ملوك الفرس القدامى، وكان أول ما ترجموا للعربية نصوص زرادشتية قديمة. ومن ناحية أخرى توغل الفكر الصوفى فى إيران وهو فكر غير سلطوى ويسمح بالتفاوض مع معطيات الإيمان. وبذلك أصبحت منزلة شعراء الصوفية مثل جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وفريد الدين العطار أشبه بمنزلة الأنبياء، فأعطى ذلك عمقاً جديداً لقضايا الفقه والفلسفة.

وأحد الفروق الهامة بين إيران والعالم العربى هو أن التعليم تتطور بشكل ملحوظ فى السنوات الأخيرة فى إيران، حتى بعد ثورة الخمينى، مما خلق مجتمعاً مدنياً راسخاً. واليوم تلعب الآداب والفنون والفلسفة دوراً هاماً فى المجتمع الإيرانى. حتى علوم الفقه والتفسير وصلت إلى مرحلة قد نحلم بها فى العالم العربى. ومن بين أهم الباحثين فى مجال العلوم الإسلامية اليوم فى إيران الدكتور عبد الكريم سروج الذى التقيت به فى مؤتمر بمدينة هايدلبرج الألمانية عام 2004. وعلى الرغم من أن سروج كان أحد أهم منظرى الثورة الخمينية، فإنه اليوم يأخذ اتجاهاً آخر غيرها، فيفرق بين الدين من ناحية وما يفهمه الناس على أنه الدين من ناحية أخرى، فيقول إن المعرفة التى يجمعها الناس عن الدين ليست مقدسة ويمكن نقدها ونقضها، و يقول إن الإيمان الحقيقى هو الإيمان فى ظل الديمقراطية، لأن الإيمان بلا حرية فى الاختيار هو إيمان زائف ولا قيمة له. وسروج ليس وحده فى هذا الاتجاه بل يدعمه الكثيرون من الشباب وحتى من رجال الدين فى إيران.

أما السبب الأخير، فهو موقف الغرب من إيران، ولا أقصد هنا فقط السياسة الغربية المعادية للنظام الإيرانى أو الإعلام الغربى الذى يضع إيران وضغوط الإصلاح فيها فى بؤرة الضوء بصفة مستديمة؛ وإنما أريد التركيز على الإيرانيين

فى المهجر الذين يختلفون عن المهاجرين السنيين كثيراً، فهم ليسوا منشغلين بأنفسهم ولا يستغلون الديمقراطية الغربية فى المطالبة ببناء المساجد أو رفع الأذان أو السماح بالذبح على الطريقة الإسلامية، كما يفعل معظم المهاجرين المسلمين العربِ. ولكن يستثمر إيرانيو المهجر جهودهم فى دعم التيار الإصلاحى فى إيران مادياً وإعلامياً. هم فى الغرب لا يخرجون للتظاهر ضد رسوم كاريكاتير مسيئة للرسول، أو تنديداً بالاحتلال الإسرائيلى لفلسطين، لأنهم يعلمون أنهم لن يستطيعوا أن يغيروا الغرب أو إسرائيل بمظاهراتهم، ولكنهم يتظاهرون أمام السفارات والقنصليات الإيرانية فى الغرب لإحراج النظام الإيرانى والضغط عليه. هناك أيضاً فرق جوهرى بين المهاجرين الإيرانيين وسواهم من مسلمى المهجر، وهو أن الإيرانيين ينتمون فى الغالب لطبقة اجتماعية وتعليمية راقية؛ مما يجعل لهم وعياً سياسياً أكثر نضجاً.

اتصل بى الصحفى الألمانى مرة أخرى بعد اندلاع الثورة الخضراء فى إيران وهنأنى على صدق نبوءتى وطلب منى أن أكتب مقالاً أربط فيه بين زيارة أوباما للقاهرة وما يحدث فى إيران. وجدتها فرصة جيدة لإعادة النظر فى آرائى السابقة، حيث إننى أغفلت فى تحليلى للموقف قبل ثلاث سنوات نقطة هامة وهى دور الولايات المتحدة فى لعبة الديمقراطية فى منطقة الشرق الأوسط، فالقوة العظمى تدعم الإصلاح فى إيران، ليس محبة لشعب إيران وإنما رغبة فى تنحية النظام المعادى لها، ولكنها أيضا تدعم النظام المصرى والسعودى البعيدين كل البعد عن الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان أيضاً من أجل مصالحها.

ولكنى لا أرى مؤامرة أمريكية خلف هذا الدعم، وإنما صدّقت أمريكا كذبة يروجها النظامان المصرى والسعودى، وهى أن البديل لهما هو قفز الإخوان فى مصر والوهابيين فى السعودية نحو السلطة مما سيضر بمصالح الولايات المتحدة وسيؤدى إلى زعزعة الاستقرار فى المنطقة إلى آخر «الأسطوانة المشروخة». ويستشهد النظامان بالانتخابات الجزائرية التى جاءت بالإسلاميين والانتخابات الفلسطينية التى جاءت بحماس كخيار للشعوب العربية ويستخدمانها كـ«بعبع» فى وجه كل من يطالب بالديمقراطية. ما لم تَعِهْ أمريكا وما لا نريد نحن أن نعيه هو أن الإخوان والوهابيين قفزوا نحو السلطة بالفعل وتمكنوا من عقول وقلوب الشباب وتغلغلوا فى مؤسسات الدولة واحتلوا الفضاءات العامة بفكرهم ومنطقهم السياسى ولم يكتفوا بدور المعارِض.

فمن الغباء إذن أن نراهم كبدائل للسلطة بعد أن صاروا بالفعل شركاء فيها، وصار كل منهما يقوى من سلطة الآخر، ومن الغباء أن نرى فيهم أملاً بعد أن صاروا ورقة مستهلكة. فإذا كانوا هم الأمل فى مستقبل أفضل فلست أدرى كيف يكون شكل اليأس؟!

من حق أمريكا أن تبحث عن مصالحها، ومن الطبيعى أن تتخدع بهذا المنطق السياسى المعوج، ولكن من السذاجة أن نقبل نحن هذه المعادلة ونستكين لها. فالطريق إلى الديمقراطية لا يمكن أن يكون مصحوباً بالجُبن أو حتى بالحذر، فحتى لو جاءت الانتخابات الحرة بالإخوان ليمكثوا فوق صدورِنا ثلاثة عقود من الزمان قبل أن يفيق الشعب من سكرته، فهذا ثمن زهيد جداً؛ مقارنة بما دفعته أوروبا فى طريقها نحو الديمقراطية. فالديمقراطية الحقيقية هى سيرورة طويلة من المحاولة والإخفاق، وهى أقوى من حساباتِ أمريكا أو استراتيجيات نظام عجوز متهالك. ولكن هل مازال لدينا ثلاثون عاماً أخرى لنجرب؟ ألم نفقد الكثير من الوقت بالفعل فى تجارب فشلت جميعها ورمتنا قروناً للوراء؟

السؤال هنا: أين هذا الخيار الثالث؟ أين هذا التيار الإصلاحى فى مصر وفى العالم العربى القادر على قراءة اللحظة التاريخية واللعب بحرفية فى أروقة السيرك السياسى؟ مَن القادر على تعبئة ثورة بيضاء حقيقية تأتى بتغيير حقيقى وليس مجرد دهان واجهة نفس البيت الآيل للسقوط بلون آخر؟

زنا محارم ثقافى..
أو مدينة حرة بلا حرية

ساقتنى قدماى ذات يوم إلى حى مغلق فى إحدى العواصم الأوروبية، ففهمت بعدها مأساة العالم الإسلامى المعاصر أكثر. لا، لم يكن أحد الأحياء التى يسكنها المسلمون حيث انتشرت جرائم العنف والمخدرات مثلما فى ضواحى باريس وبرلين وبرمنجهام وروما، وإنما كانت مستوطنة يسكنها أوروبيون يعيشون فى عزلة عن العالم الخارجى. إنها مدينة «كريستيانيا الحرة» التى أعلنت استقلالها عن الدنمارك من جانب واحد عام 1971 بعد أن احتل مجموعة من الشباب اليساريين بعض الثكنات العسكرية وسط كوبنهاجن. قالوا إنهم ضد الرأسمالية والاستهلاك واغتصاب البيئة، ولذلك قرروا أن يعيشوا بأسلوب حياة مختلف لا يعتمدون فيه على الدولة ومؤسساتها. ومن يومها صارت كريستيانيا واحة للحرية التامة بلا قانون ولا شرطة. يعيش فيها قرابة ألف شخص وفق مبدأ الاكتفاء الذاتى فلا يدفعون ضرائب للدولة ولا يستفيدون من خدماتها (على حد قولهم). كل شىء مسموح فى كريستيانيا إلا التصوير والجرى وذلك لسبب وجيه، فكريستيانيا أصبحت أكبر وكر لتجارة المخدرات فى الدنمارك ورجال الشرطة لا يستطيعون دخولها إلا متنكرين.

وأثناء وجودى فى كوبنهاجن زارنى هناك صحفى ألمانى من مجلة «دير شبيجيل» يدعى «هنريك برودر» لإجراء حوار معى عن روايتى «وداعاً أيتها السماء» التى صدرت بالألمانية فى 2009، فاقترحت عليه أن يذهب معى لزيارة كريستيانيا، وهو اقتراح ندمت عليه كثيراً فيما بعد. هنريك صحفى مخضرم ويحب المغامرات ويعرف كيف يستخلص تقريراً صحفياً مميزاً، وقد شم عند أسوار كريستيانيا إمكانية إجراء سبق صحفى هناك. دخلنا من بوابة المستعمرة التى رُفع عليها علم آخر غير علم الدنمارك وكُتب عليها «هنا تنتهى حدود الاتحاد الأوروبى». معظم بنايات المستعمرة من الخشب وكذلك الأكشاك التى يبيع فيها تجار المخدرات بضائعهم علناً. كانت المدينة مليئة بشباب وعجائز من الجنسين لا يربطهم إلا شىء واحد، وهو أن جميعهم كانوا إما تحت تأثير المخدرات أو الكحول أو كليهما معاً. لم يعترف هنريك برودر بلافتات «ممنوع التصوير» المنتشرة فى كل مكان بالمستعمرة وراح يصور تجار المخدرات وزبائنهم، حتى التفت حوله مجموعة من ذوى العضلات المفتولة وطلبوا منه أن يريهم الصور، ولكنه رفض فانهالوا عليه ضربا ومزقوا بنطاله وأخذوا منه الكاميرا وألقوها فى برميل به نار مستعرة (وهذا مخالف لتعليمات حماية البيئة التى ينادى بها سكان كريستيانيا).

وقد نالنى - والحمد لله - من الحب جانب وأصبت بكدمات فى اليد والصدر وأنا أحاول الدفاع عنه. كانوا على درجة من الكرم، فلم يفتحوا علينا المطاوى؛ بل

اكتفوا بطردنا من المستعمرة وحذرونا من العودة مرة أخرى. توجهنا لأحد أقسام الشرطة خارج كريستيانيا وقدمنا بلاغاً بالواقعة، ولكن رجال الشرطة رفضوا الذهاب معنا للمستعمرة للتعرف على من ضربوا هنريك وأحرقوا كاميرته، وقالوا إن الشرطة تحتاج لخمسين فرداً مسلحاً للدخول لكريستيانيا، وهم لا يفعلون ذلك إلا فى حالات جرائم القتل. لم يتبق لهنرك إلا نشر تفاصيل هذه المغامرة على موقع صحيفة «دير شبيجيل». وفى اليوم التالى نشرت الصحف الدنماركية الخبر وطالبت بإغلاق «كريستيانيا» وتحطيم منازلها.

حاولت بعد تلك الحادثة أن أجمع معلومات عن كريستيانيا وتساءلت كيف أن مدينة بُنيت على مبدأ الحرية والتضامن ينتهى بها المطاف لتصبح واحة للعنفٍ تسيطر عليها عصابة من تجار المخدرات. كيف أن الذين أرادوا أن يخلقوا بديلاً للنظام الرأسمالى الاستهلاكى قد صاروا اليوم عالة على هذا النظام، حيث يعيش معظمهم إما من تجارة المخدرات أو على المعونات الإجتماعية التى تقدمها لهم دولة الدنمارك. التقيت بمُدرّسة اسمها «بينتا» تعيش فى كريستيانيا لأستفسر عن أسلوب حياتهم. حكيت لها ما حدث مع تجار المخدرات هناك فقالت لى إنى رأيت جانبا واحدا من كريستيانيا وهو أسوأ الجوانب أما باقى المكان فهو مثل جنة على الأرض يأكل كل سكانه مما غرست أيديهم ويتضامن أهله مع بعضهم ويساعدون كل محتاج. وما تجار المخدرات إلا قلة قليلة يستغلون الحرية المطلقة وغياب الشرطة.
«ولكن الجميع يدخنون الحشيش»، قلت لها.

«نعم.. ولكن الحشيش ليس من المخدرات، بل وسيلة للسمو بالروح.. البعض يحتاج الرياضة والبعض يتجه للفن وآخرون يفضلون الحشيش للبحث عن ذواتهم»، قالت بإصرار.

وعن سؤالى لها كيف يفضون نزاعاتهم فى غياب الشرطة قالت «بمبدأ الشورى» عن طريق اجتماع لكل سكان المستعمرة والنقاش حتى التوصل لقرار بالإجماع. وأقسى العقوبات التى يفرضها سكان كريستيانيا على الجانى هى النفى إلى الأبد.

لا أستطيع أن أدعى أن كلام «بينتا» عن كريستيانيا غير وجهة نظرى عنها، ولكنه زاد من فضولى الملعون حد أن أزور المكان مرة أخرى، وهذه المرة لم يحدث شىء لأنى ابتعدت عن الشارع الذى يبيعون فيه المخدرات. شاهدت منازل ريفية وحدائق جميلة وحياة شبه طبيعية، ولكنى كنت لا أزال أرى ظلال كهف أفلاطون فى كل مكان.

بعد يومين زرت مكتبة فى حديقة القصر الملكى. مكتبة غريبة فعلا.. كل كتبها عبارة عن بشر.. يمكنك استعارة كتاب لمدة نصف الساعة وتتركه يحكى لك قصة

حياته ثم تسأله عن كل ما يجول بخاطرك قبل أن تعيده إلى الرف وتستعير كتاباً بشرياً آخر. رجل شرطة، عاهرة، سمسار عقارات، مدمن مخدرات، مثلى جنسى، قس، امرأة مسلمة، لاجئ سياسى، راقصة استربتيز ورجل معوق وعشرات الآخرين.. كلهم جاءوا كى يحكوا قصتهم ويخبروا كل من يريد عن طبيعة وظائفهم وظروف حياتهم اليومية.
«مرحبا بالأحكام المسبقة».. هذا هو شعار المكتبة.

«نيم» ينتمى إلى ذلك النوع من رجال الشرطة الذى تتمنى أن يقبض عليك: بشوش ومثقف و«مش شايف نفسه». بدأ حياته العملية مساعدا للعجائز بإحدى دور المسنين ثم تقدم لأكاديمية الشرطة وتخرج وعمل ضابطا بكوبنهاجن. يقول «نيم» إنه يحب عمله كثيرا، وخصوصا أن كوبنهاجن مدينة مسالمة، ولكن هناك حيّين بالمدينة يسببان قلقا مستمراً لرجال الشرطة ولِباقى سكان كوبنهاجن. الحى الأول هو «كريستيانيا»، الذى صرت أعرفه جيداً، والحى الآخر هو «نورى برو» ومعظم سكانه من المهاجرين المسلمين. «99 فى المائة من هؤلاء المهاجرين مسالمون وطيبون»، قال «نيم»، ولكن فقط سبعين شخصا من الشباب التركى والعربى يشكلون عصابة ويبتزون سكان الحى ويرهبونهم ليل نهار. فهم عاطلون نشأوا بلا تعليم وبلا قدوة حسنة. عائلاتهم وكذلك الحكومة الدنماركية تركوهم بلا سند فانحدروا إلى عالم الجريمة. ليس من العجيب أن تكون قدوتهم الوحيدة تجار المخدرات والمجرمين من المهاجرين، لأنهم الوحيدون فى الحى الذين يركبون المرسيدس ويمتلكون الأموال فيما يعيش معظم سكان الحى على معونات الدولة الاجتماعية. وقد تم تقسيم هذا الحى لجزءين يفصلهما شارع واحد: الجزء الأول يسكنه الدنماركيون وميسورو الحال من المهاجرين، والجزء الثانى يسكنه من لم يسعفهم الحظ من المهاجرين فعاشوا تحت رحمة سبعين رجل يتقاضون منهم الإتاوات ويبيعون المخدرات.

«ليس غريبا أن ينحرف شباب فى ظروف مثل هذه، ولكن الغريب أن يسمح آلاف من البشر لشرذمة صغيرة منهم أن تتحكم فى مصائرهم وتجعلهم يعيشون فى رعب»، قال ضابط الشرطة. أخبرته أنى أريد زيارة هذا الحى، فحذرنى ألا أفعل، ثم نصحنى إذا سرت فى شوارع الحى ألا أرفع عينى فى عين أحد من الشباب الواقف على النواصى وإلا جاءوا وطعنونى على الفور.

رحت أفكر فى قصة حى نورى برو وكريستيانيا وأبحث عن أوجه الشبه بينهما، وتوصلت إلى أن عزلة أى مجموعة من البشر عن باقى المجتمع تؤدى إلى ما يشبه زواج الأقارب أو حتى زنا المحارم، حيث لا ينتج عن ذلك الزواج سوى أطفال مشوهون أو مرضى ذوو جينات ضعيفة. العزلة تؤدى إلى الخوف أو سوء الظن بالآخر. والهروب إلى العزلة باسم الحرية لا يؤدى فى النهاية سوى إلى مزيد من القيود والأعراف التى قد تصل لدرجة العبودية. معظم سكان نورى برو

وكريستيانيا بالفعل مسالمون وطيبون، ولكنهم فاقدو الإرادة ولا يتعاملون بوعى مع مصائرهم، ولذلك تسيطر عليهم عصابة صغيرة من المجرمين..

ألا يذكرنا ذلك بما يحدث فى عالمنا الإسلامى؟

أقفاص ودواجن..
أو حكاية بنت اسمها وفاء

منذ قرار سويسرا بحظر بناء المآذن لم نقرأ شيئاً إيجابياً عن هذا البلد فى الصحف العربية. لذلك أصابتنى الدهشة حين قرأت على موقع صحيفة «الوطن» السعودية فى مارس 2010 مقالاً للكاتب تركى الدخيل يمتدح فيه حماية الحيوان فى سويسرا. ويحكى المقال قصة محام فى مدينة زيورخ يدعى «أنطون» وظيفته الدفاع عن الحيوانات فى المحاكم السويسرية. ويبرر أنطون عمله كمحام للحيوانات بقوله «إن معنى العدالة هو أن تدافع عن هؤلاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم». كان مقال الدخيل من ناحية مديحاً لبلد لا يحب أحد من المسلمين أن يمتدحه؛ ومن ناحية أخرى نداءً لمراعاة حقوق الإنسان فى بلد لا يحب المسلمون أن ينتقدوه.

كانت معظم التعليقات على مقال الدخيل خفيفة ومضحكة، وبين تلك التعليقات كتبت امرأة سعودية «ليتنى كنت بقرة فى سويسرا!».. قد يبدو هذا التعليق فكاهياً للبعض، ولكن فى الحقيقة فإن وراءه مأساة حقيقية. إن رغبة امرأة سعودية فى أن تنال بعض حقوق البقر فى سويسرا شهادة فقر لأغنى دولة عربية. ففحوى تعليق السيدة السعودية قد يصبح جلياً إذا نظرنا إلى وضع النساء فى هذا البلد الذى يرى نفسه قلب العالم الإسلامى. فليست فقط حرية المرأة السعودية فى التعليم والحركة والتعبير عن الرأى تُداس يومياً بالأقدام باسم الدين والقانون، وإنما أيضا تتعرض 93% من النساء السعوديات لجميع أنواع العنف الأسرى، حسب دراسة سعودية حديثة. لذا فليس من جانب الصدفة أن تحتل المملكة أحد آخر المراكز فى تقرير المنتدى الاقتصادى العالمى عن حقوق المرأة لعام 2009. فى الواقع فإن جميع المراكز الأخيرة تقريباً كانت محجوزة للدول الإسلامية. فقط دولة «بينين» الأفريقية نجحت فى أن تحتل مكانا متأخراً بين الأشقاء العرب والمسلمين. احتلت اليمن المركز الأخير بجدارة بين 134 دولة، وجاءت باكستان فى المركز 132، بينما احتلت السعودية المرتبة 130، وتلتها تركيا 129، ثم إيران فى المرتبة 128، فى حين احتلت مصر مركزاً «مشرفاً» هو 126. ولم يدرج التقرير ثلاث دول تطبق فيها الشريعة الإسلامية وتتعرض فيها المرأة لأبشع أنواع الاضطهاد وهى الصومال وأفغانستان والسودان. وجاءت إندونيسيا فى المركز 93 واحتلت بذلك مرتبة أفضل دولة إسلامية فى مجال حماية حقوق المرأة، ولكنها مع ذلك أسوأ من دول كثيرة أكثر فقراً وجهلاً.

يؤكد التقرير أن أكثر من نصف مليار امرأة مسلمة تتعرض يومياً لجميع أنواع التمييز والاضطهاد وتضييق الخناق. وتؤكد جميع تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية والخاصة هذه الإحصائيات، وتحذر من أن وضع المرأة فى المجتمعات الإسلامية يهدد مستقبل التعليم والاقتصاد فيها. وهنا يطرح سؤال هام نفسه بهذا

الصدد: كيف يمكن لمجتمع أن يلحق بركب التقدم فى حين أن نصف أفراده يعوق النصف الآخر عن اختيار أسلوب حياته بنفسه؟

لا أريد أن أتحدث عن قضايا الرجم والجلد والمصائب الأخرى التى تتعرض لها النساء فى بعض البلدان الإسلامية، ولكنى أريد أن أسرد قصة بنت مصرية أعرفها جيدا، لأنى أرى فى قصتها مثالا حيا لأنواع العنف الاجتماعى التى تتعرض لها المرأة المسلمة.

لم تبلغ وفاء عامها السادس عشر بعد، ولكنها تحمل طفلاً على كتفها. بعد كل جملة تنطقها تبتسم ثم تنظر إلى الأرض فى حياء. فى السنوات القليلة الماضية مورست ضد وفاء ثلاث جرائم بشعة، ولكنها ما زالت تبتسم. أيضاً ما زال والدا وفاء يبتسمان، لأنهما لا يعيان بعد كيف أنهما دمرا مستقبل هذه البنت. فالعنف الجسدى والاجتماعى فى النظام الذى ولدت فيه وفاء شىء أكثر من عادى.. العنف صار مثل الماء والهواء، حتى إن بعضهم يستغرب عندما يتساءل أحد عن جدوى هذا العنف. أنا أعرف وفاء جيدا، فهى ابنة أختى وقد شهدت ميلادها بنفسى وكنت أول من حملها على ذراعى. أطلقوا عليها اسم وفاء، فصار هذا الاسم قدَراً قاسياً عليها لا تستحقه. كانت طفلة يقظة وتتمتع بقدر غير عادى من الذكاء، وكانت أفضل طلاب مدرستها. كانت فرصها فى الحصول على تعليم ممتاز مكفولة، خصوصا أن والدها مدرس ميكانيكا بإحدى المدارس المهنية، وأمها على قدر جيد من التعليم. وخالها (العبد لله) يعمل مدرساً بإحدى الجامعات الألمانية ووعدها بأن يساعدها فى أن تستكمل دراستها فى أوروبا لو استمرت على تفوقها. كانت وفاء تحب أن تتحدث إلى خالها باللغة الإنجليزية وكانت عيناها تبرقان بالسعادة حين تنطق بجملة صحيحة وكأنها كانت ترى نفسها فى قاعة محاضرات بجامعة أوروبية. ولكن القدر قرر غير ذلك.. لا لم يكن القدر، بل الغباء الاجتماعى واللامبالاة هما اللذان حالا دون مستقبل أفضل لوفاء.

بدأت القصة منذ عدة سنوات حين كنت فى زيارة لمسقط رأسى فى إحدى قرى الدلتا. زرت بيت أختى فرأيت وفاء مستلقية على السرير تنظر إلى السقف ولا تتكلم. نظرت إلىّ نظرة شاردة مكسورة ثم واصلت مراقبة سقف الغرفة. لم يجرؤ أحد أن يحكى لى ما حدث، لأنهم يعرفون موقفى من تلك الجرائم التى يسمونها عادات أحيانا أو سنن أحياناً أخرى. ولكن أخى الأصغر حكى لى أن أسرة وفاء قامت بختانها قبل أسبوع، وأنها ما زالت تعانى من آلام النزيف حتى اليوم ففقدت شهيتها للطعام والكلام على السواء.

«طيب وإيه يعنى؟ ما هو دا بيحصل لكل البنات».. لعل ذلك هو ما يدور برأسك الآن عزيزى القارئ.. لعلك تسخر من سذاجة هذا المصرى المتمدين القادم من أوروبا بأفكار جديدة غريبة. فى الحقيقة إن استغرابك وسخريتك عزيزى القارئ هما لب القضية. وقولك إن ما حدث لوفاء «أمر عادى» هو أساس المصيبة. فقد

اعتدنا على تكرار الأخطاء حتى صرنا نظن أنها فضائل.

منذ أيام دراستى بالقاهرة وأنا أحاول إيقاف هذه العادة الخبيثة فى محيطى الأسرى فى القرية، ولكن عائلتى حينها لم تنصت لى وظنت أن القاهرة قد أفسدت رأسى. وها أنا اليوم عائد من أوروبا، وهو سبب أقوى لعدم الإنصات لآرائى. وبعد عامين عدت فى زيارة أخرى للقرية ففوجئت بأن إبنة أخى الأكبر تعرضت لنفس الختان وكادت تموت بسبب النزيف الشديد. شعرت بقلة الحيلة والعجز وشعرت بغضب شديدٍ. أحسست أن تدريسى لطلاب ألمان فى جامعة ألمانية لا قيمة له إذا لم أفعل شيئاً على الأقل فى أسرتى.

قمت على الفور بالإعداد لمؤتمر عن موضوع الختان فى القرية ودعوت إليه المؤيدين والمعارضين ممن يعرفهم ويحترمهم أبناء القرية. لم أرغب فى تلقين أبناء قريتى درساً، ولكنى فقط كنت أسعى للحوار حول موضوع لا يفتحه أحد. لبى الدعوة الدكتور عبد الله سمك من جامعة الأزهر، والدكتورة ملكة زرار أستاذة الشريعة والقانون، والدكتورة حنان يوسف المذيعة بالتلفزيون المصرى. ومن أبناء القرية حضر طبيب أمراض نساء وعضو مجلس شعب. وبعد إلحاح تمكنت من اقناع أبى بالجلوس على المنصة بصفته إمام المسجد. كانت قاعة المؤتمر مكتظة بالحضور وتسللت بعض النساء وجلسن فى أحد الأركان. كان الجو متوتراً منذ البداية، وبدا على الكثيرين من الرجال أنهم ضد فكرة النقاش من الأساس. حدثت بلبلة بين الحضور قبل بداية المؤتمر وراح الناس يتساءلون من الذى يمول هذا المؤتمر وما علاقة الغرب به؟ الشك الأزلى تجاه أى خطوة جديدة والخوف من أن يكون الغرب وراء كل شىء كادا يؤديان إلى فشل المؤتمر قبل أن يبدأ. كان من الصعب على الحاضرين فهم أن المؤتمر مبادرة شخصية منى، وأنى الممول الوحيد له، ولم يساعدنى فى تنظيمه إلا أخى الأصغر وصديق من القاهرة. «وهى البلد ما فيهاش مشاكل تانية غير الختان يعنى؟»، تساءل أحد شباب القرية.

افتتح أبى المؤتمر بتحية الضيوف وقال إنه لن يلعب دور رجل الدين فى المؤتمر وسيترك الفتوى للشيخ عبد الله سمك، ولكنه أراد أن يدلى برأيه الشخصى قائلا إنه يعتقد أن الختان ظلم فى حق النساء، وأنه عادة وليس عبادة. تحدث الطبيب عن أخطار الختان الصحية والنفسية والاجتماعية، وقال إنه يؤدى إلى البرود الجنسى، وهو أكبر خطر على الحياة الزوجية وسببٍ الطلاق الحقيقى لمعظم الزيجات، ولكن الناس تتجنب الحديث عن ذلك صراحة. أيدت الضيفتان رأى الطبيب، ثم جاء الدور على الشيخ الأزهرى فقال إن الرسول أيد الختان، لذا فهو مستحسن إن لم يكن فرضا، ولكنه فرق بين الإخفاض وتشويه الأعضاء التناسلية للمرأة وهو ما لا يقبله الإسلام. محى كلام الشيخ الأزهرى كلام أبى والطبيب وكلام السيدتين، وضجت القاعة بتصفيق حاد وكأن الجمهور انتصر فى معركة أخلاقية. كنت أحاول فقط أن أدير الحوار دون أن ألقى كلمة، ولكنى حين سمعت كلام الشيخ

واستحسان الناس له أصابنى الغيظ، فوقفت وطرحت السؤال التالى على الحضور: «لو أصيبت إحدى بناتكم بنزيف حاد أثناء الختان، هل ستذهبون بها للطبيب أم للشيخ الأزهرى؟».

لو أن طبيباً تجرأ وأفتى فى أمور الصلاة أو العقائد لألقى الناس عليه اللوم، ولكن لماذا لا يثور أحد حين يفتى رجال الدين فى أمور الصحة والمال والزراعة؟ لماذا لا تغضب النساء أن يفتى رجل على أجسادهن وهو لا يعرف عنها شيئاً. كانت كلمة واحدة من رجل الدين كافية لتعطيل كل حجج المنطق وإلغاء آراء الخبراء فى المؤتمر. لم يقتنع أحد بحقيقة أن الختان عادة إفريقية قديمة انتقلت إلى مصر من خلال تجارة بين مصر والصومال أيام الفراعنة. وأنه لو كانت هناك علاقة بين الختان والإسلام لكانت السعودية أول دولة تمارس الختان، ولكن كلما ابتعدنا عن الصومال قلت نسبة الختان بين الإناث، ففى المغرب وإيران وإندونيسيا لا يعرف أحد شيئاً عن هذه العادة. ولكن التاريخ قد أثبت أن أى عادة تؤدى لقهر النساء يتم استيرادها بسهولة وسرعة فائقة، فى حين تحتاج كل فكرة لتحرير النساء إلى سنوات وربما قرون.

لم يحقق المؤتمر نجاحاً يُذكر بين أبناء القرية، ولكنى كنت أتوقع ذلك. كان النجاح الوحيد أن أبى وعدنى بأنه لن يسمح بختان أى طفلة فى أسرتنا بعد اليوم.

حصلت وفاء على مجموع رائع فى الإعدادية والتحقت بالمدرسة الثانوية. وكان كل شىء يشير إلى أنها تتجه نحو مستقبل مشرق، ولكن ذات يوم رآها رجل عمره 32 عاماً فى طريقها للمدرسة فوقع فى غرام خطواتها الطفولية. تقدم للزواج بها وهى لا تزال فى الرابعة عشرة، فوافق أبوها فوراً، فقد امتلأ بيته بالأطفال وكانت زوجته حاملا مرة أخرى. «عادى جداً.. وأين الجريمة فى ذلك؟».. أضبطك متلبساً بهذا التساؤل من جديد عزيزى القارئ، فلعلك اعتدت على سماع مثل هذه القصص، أو ربما زوجت ابنتك وهى لا تزال طفلة لمن هو فى عمر أبيها، أو ربما كنت أنت هذا الزوج. فأنت بالطبع مقتنع أن الرجل يجب أن يتزوج بكراً على غير دراية ودون خبرات حتى يشكلها مثل العجينة حسب هواه. ألم تسأل نفسك يوماً ما هو العيب أن تعيش المرأة حسب هواها هى لا هواك أنت؟ أليس من الأفضل أن يوافق هواها هواك وتوافق أفكارها أفكارك من أن تحتجزها رهينة وتفرض عليها هواك وأفكارك؟ المصيبة هى أن مثل هذه الممارسات صارت اعتيادية وصارت لا تثير غضبنا أو أستياءنا. ومع ذلك مازلنا نتساءل جميعاً: أين الخلل فى بلادنا؟ ألا يبدأ الخلل حين نعبث بجسد طفلة ونقطع من عصبها الحى ثم نحرمها من الدراسة ونلقى بها فى أحضان جسد جائع لا يراعى طفولتها؟ ألا تبدأ المأساة من هنا؟

السكوت علامة الرضا. كانت وفاء وفية كما توقعها أبوها ولم تعترض. تركت المدرسة وأصبحت «زوجة» رغم أن قوس طفولتها لم يكتمل بعد. تزوجت بلا

عقد قران، لأنها لم تبلغ السن القانونية بعد، ولكن سنة الله ورسوله كانت عوضاً عن القانون.

كانت وفاء حساسة أكثر من اللازم فلم تحتمل العنف الجسدى والجنسى ممن اشتراها، ففرت بعد شهر واحد إلى بيت أبيها، ورغم إلحاح أسرتها عليها للعودة، رفضت وطلبت من أبيها أن يعيدها إلى المدرسة. ولكن القدر أراد غير ذلك، فقد كانت حاملا. وضعت الطفلة طفلاً وأرادت تسجيله فى مكتب الصحة ولكن الموظف رفض تسجيل الطفل لأنه لا يوجد عقد زواج.. القانون قانون. لم تستفد وفاء من قانون تحريم الختان ولم تستفد من قانون تحريم زواج القاصرات، ولكن فى هذه المرة طبق القانون عليها لأنها هى المتضررة. قال الموظف إنه على والد الطفل أن يحضر لإثبات أبوته له كى تأخذ الإجراءات مجراها. ولكن الأب اشترط أن تعود وفاء إلى بيته حتى يعترف بأبوته للطفل، فتعقدت الأمور.

كل ذلك حدث وأنا فى ألمانيا حيث لم يخبرنى أحد بزواج وفاء ولا بما حدث لها فيما بعد. ولكن حين لاحظ أخى أن وفاء دخلت فى حالة اكتئاب شديدة اتصل بى وحكى لى ما جرى وقال إن وفاء تريد العودة إلى المدرسة ولكن أباها يرفض لأنه «خايف من كلام الناس». كدت أصاب بالجنون وتساءلت كم جريمة أخرى تريد هذه العائلة أن ترتكبها فى حق وفاء، ولم يتبق لى إلا أن أهدد والد وفاء بأنه إن لم يعدها إلى المدرسة لقدمت ضده بلاغ للنيابة بسبب تزويجه قاصراً. اتصلت بعدها بمدير المدرسة وطلبت منه أن يقبل أوراقها من جديد وأن يحميها من تعليقات الطالبات السخيفة. ثم تحدثت إلى وفاء وحاولت تشجيعها وقلت إنه ليس عاراً أن يفشل زواج وليس عيباً أن تعود أم إلى المدرسة من جديد، بل إن ذلك مدعاة للفخر وسبب لأن تصير هى قدوة حسنة لكل بنت يفشل زواجها. عادت وفاء إلى المدرسة وكانت فى منتهى السعادة.

وأثناء زيارتى الأخيرة للقرية جاءت وفاء لزيارتى بالمنزل وهى تحمل طفلها على ذراعها. ابتسمت كعادتها ونظرت إلى الأرض. سألتها بالإنجليزية «كيف حالك؟» فردت بوجه عبوس «أنا نسيت الإنجليزى يا خال!».. ارتبكت قليلاً ثم نظرت إلى أمها فأسعفتها أمها قائلة «إحنا كنا عاوزينها تكمل فى المدرسة بس هى ما رضيتش»! الحقيقة هى أن والد وفاء أجبرها على ترك المدرسة من جديد وأعادها لزوجها كى يعترف بالطفل.

نظرت إلى أختى وابنتها فرأيت طفلتين تحملان طفلين.. أصبحت وفاء أماً وهى فى الخامسة عشرة وأصبحت أمها جدة وهى فى الرابعة والثلاثين. كلتاهما كانت طالبة نابغة، ولكن العائلة قدمتهما قرباناً للنظام والتقاليد. سلبهما هذا النظام طموحهما وقدرتهما على التفكير باستقلالية. لم يتبق اليوم من عيونهما الفضولية البريئة سوى ابتسامة كاذبة حائرة. تساءلت فى حسرة: من سيغير هذا النظام غير المدرس والإمام والطلاب النوابغ؟ ولكنهم تواطأوا جميعاً مع بعضهم ضد التغيير

ثم دفنوا رءوسهم فى الرمال وراحوا ينتظرون المخلص. من الطريف فى الأمر أن والدى ووالد وفاء من أنصار البرادعى وأصيبا بخيبة الأمل عندما تعرقل مشروع ترشيحه للرئاسة! كلاهما يظن أن التغيير يجلبه الآخرون.

تسببت قصة وفاء فى سقوطى فى حالة نفسية سيئة للغاية، ورحت أتساءل: متى بدأ الشرخ فى هذه العائلة؟! تذكرت يوم عرس أختى، أم وفاء، ربما يكمن اللغز فى ذلك اليوم. عندما كنت طفلاً كان أبى يكلفنى الإمساك بالدجاج من حوش المنزل ليذبحه. كانت مهمة صعبة جداً لأن الدجاج المنزلى خفيف الحركة وسريع الهرب. ولكن لم تكفِ دجاجات المنزل ضيوف عرس أختى، فذهبنا لشراء فراخ «الوزارة» من أحد مزارع التسمين عن طريق البطاريات. كانت الدجاجات تقف بلا حول ولا قوة فى سجنها ولم تبدِ أية مقاومة حين أمسك عامل المزرعة بها وأدخلها فى القفص. وطوال الطريق لم تتحرك دجاجة واحدة ولم تصدر أى صوت. حتى عند ذبحها أذعنت جميعها لقدرها المحتوم وكأنها بلا أجنحة.

هل صارت مصر كلها مزرعة وصرنا جميعاً «فراخ الوزارة» منزوعة الريش ومكسورة الأجنحة، كلٌ يعرف مكانه فلا يتخطاه؟ هل أنسانا السكوت الطويل وعدم الحركة نزعة الحرية والهرب من الأخطار؟ يتغير العالم من حولنا وتتغير القوانين وقواعد التسمين.. ولكننا لا نتغير. نكتفى من الحين للآخر بديك عفى «يتنطط» حولنا ويوهمنا بأن التغيير وشيك، أو بدجاجة لبِقة تذكرنا بأن الدجاج فى الهند وبوركينا فاسو أيضاً يعانى أشد المعاناة، أو أن دجاجات أوروبا تُعرض عارية فى الفاترينات وتنتهك حرمتها من أجل تسويق البضائع. ومع الوقت ننسى حتى أننا نعيش فى أقفاص ونسعد بالخلطة التى يلقيها صاحب المزرعة تحت أقدامنا.. تلك الخلطة المصنوعة من عظام دجاجات أخرى. الخلطة السحرية تجعلنا نقبل الواقع ونرضخ للمكتوب: الختان للنساء.. الخصاء للرجال.. الديكتاتورية تبدأ فى الرأس!

الخوف من الجسد..
أو هل يحتاج الإسلام ثورة جنسية؟

لم يكن الدين الإسلامى أبداً معادياً للجنس. بل إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يحترم حق المرأة فى الاستمتاع باللقاء الجنسى مع زوجها ويعطى نصائح للرجل كى لا يحرم زوجته من لذة الفراش. وفى القرون الوسطى اتهم الأوروبيون الإسلام بأنه دين جسدى يتحدث صراحة عن الجنس واللذة ويحرّم الرهبانية واعتزال النساء. ولكن المفهوم القبلى والبدوى للعائلة والشرف اختلط بالإسلام منذ ميلاده، فحرم المرأة من حقوقها وضيق الخناق عليها وعلى جسدها. وكما كان الأفارقة يعتقدون أن الشيطان يسكن فى رحم المرأة، واخترعوا عادة الختان لطرد الشيطان، وكانوا، بل وما زالوا، يقومون بتشويه الأعضاء التناسلية للمرأة وطمسها لحين زواجها، فإن العرب فى الماضى والحاضر كانوا يراقبون المرأة فى كل خطواتها ولا يثقون بمشاعرها وأهوائها. والسبب فى ذلك هو مفهوم الشرف كما فهمه العربى القديم، وهو مفهوم يرتبط بالرجل وحسبه ونسبه وغِيرته ومخاوفه. فكلمات: شرف، وشهامة، ومروءة، وعِزة، وكرامة، وفخر، ونخوة.. يمكن الاستعاضة عنها بكلمة واحدة هى: رجولة.

فمفهوم الشرف كان دائماً مرتبطاً بالنسب والعِرق والدم والخط العائلى للرجل. فالقصيدة العربية القديمة تعتمد على مدح قبيلة الشاعر وسرد أسماء أبطالها والتغنى بأنسابها. وبما أن المرأة هى الوحيدة التى تضمن عدم اختلاط الأنساب، فقد كانت دائماً تحت مراقبة الرجل، وهكذا أصبحت كلمة شرف مرادفة لكلمة عفة المرأة. وقد تبنى الإسلام أيضاً هذا التعريف للشرف وعلاقته بالنسب والخط العائلى، حتى إن الرسول نفسه تغنى بنسبه وافتخر به حين قال فيما رواه مسلم: «إن الله اصطفى بنى كنانة من بنى إسماعيل، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بن هاشم، واصطفانى من بنى هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار».

إذن فالشرف العربى يمكن تشبيهه بأمانة يودعها الرجل بين فخذى المرأة، أى أنه شىء لا يمكن للمرأة أن تكتسبه، بل هو شىء يمكن أن تخسره فى أى لحظة. ولم ينظر العربى بصفة خاصة، والمسلم بصفة عامة، للمرأة عبر التاريخ على أنها بشر فى المقام الأول ولكن كحامل لهذا الشىء القابل للكسر والاشتعال والخطف الذى يسمونه «الشرف»، أو كحامل لولى العهد الذى سيحمل اسم العائلة. وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقة بين الجنسين التى أصابتها البارانويا وعدم التوازن. وكان ذلك سبباً فى اختراع أو استيراد أساليب لترويض أو تخويف المرأة مثل الرجم والجلد والختان والنقاب والبرقع. حتى إن هناك مصطلح جديد تم اختراعه فى هذا الصدد وهو «جرائم الشرف» حين يقتل الأب ابنته أو الأخ أخته بسبب سلوكها، وهو مصطلح ظالم للمرأة ويحمل تبريراً للجريمة، وكان من الأولى أن يُسمى

«جرائم العار».

كانت هناك عادة غريبة مارسها الصينيون حتى خمسينيات القرن الماضى وهى كسر أصابع قدم الفتاة وهى صغيرة ثم ثنيها تحت بطن القدم وربطها برباط خانق حتى لا تنمو قدمها وتظل صغيرة. وكان لهذه العادة البشعة أصل تافه وهو أن أحد الأباطرة قبل آلاف السنين وقع فى غرام راقصة وأعجب بقدميها الصغيرتين، ومنذ ذلك اليوم والقدم الصغيرة فى الصين هى أهم معايير الجمال. صارت العديد من الأمهات منذ ذلك الحين يصررن على كسر أقدام بناتهن فى الصغر، ومع مرور الوقت تحولت الموضة إلى عادة ثم إلى قانون، فكانت البنت ذات الأقدام السليمة لا تحصل على عريس. ويمكن مقارنة تلك القصة بقصة ختان الإناث فى مجتمعاتنا: بدأ الأمر بأسطورة إفريقية استوردها الفراعنة ثم تحولت إلى عادة ثم إلى قانون ألصقنا به الدين ومفاهيم الشرف، حتى صارت البنت التى لا تختتن تخشى اليوم من العنوسة، مع انها هى السليمة وليست المشوهة.

إن الجنس هو أكثر الأشياء طبيعية فى الحياة، بل إنه هو الحياة ذاتها. ولكن البشر يميلون دائماً إلى إضفاء جو من القدسية والرهبة على العملية الجنسية. وفى جميع الثقافات وفى جميع اللغات تقريباً يُطلق على «غشاء البكارة» مصطلح شبه دينى يعطى هذا الجزء من الجسد أكثر من حجمة. فيُنظر إليه كأنه بوابة مقدسة تتغير المرأة والعالم كله بعد فتحها، فى حين أنه ليس أكثر من شىء مرن لا يتهتك بعد أول لقاء جنسى وإنما يتغير شكله فقط (كما أثبتت آخر الأبحاث الطبية). وقد أصبح غشاء البكارة هذا حديث الصحافة ومجلس الشعب فى مصر لأسابيع بعد انتشار تقارير عن نزول كمية كبيرة من أغشية البكارة الصينية للسوق المصرى. وحقيقية أن السوق المصرى فى حاجة لمثل هذه الأغشية بجانب الضجة التى أحدثها تناولها فى الأسواق يوضح أن هناك خللاً فى مفهومنا للأخلاق والقيم، لأن الأخلاق التى تأتى من مبدأ قصر الذيل ليست أخلاقاً، والعفة التى تأتى نتيجة عدم إمكانية الاختيار ليست سوى رذيلة تنتظر فرصة ارتكابها.

من الغريب جداً أن المجتمع، وليس المرأة نفسها، هو الذى يقرر أى أعضاء جسد المرأة مهم ويجب الحفاظ عليه مثل غشاء البكارة وأيها «زائد» ويجب بتره عن طريق الختان مثل البظر. تخيل عزيزى القارئ لو أننا اعتبرنا غشاء البكارة هذا كأى جزء من الجسد مثل اللحمية أو الغدة الدرقية أو اللوزتين وأعطينا المرأة وحدها حرية التصرف فيه، ماذا ستكون النتيجة؟ تخيل لو أننا أطلقنا على هذا الغشاء اسماً عاديا جداً مثل «باب زويلة» أو «كوبرى الهنا»! تخيل لو أننا اتفقنا أن المرأة هى التى تمتلك غشاء بكارتها وبظرها لا العكس!

لست من دعاة العرى والفحش والرذيلة، ولكننى أتساءل عن مفهومنا للأخلاق والفضيلة ومدى فاعليته. هل عفتنا وطهرنا حقيقيان وناتجان عن ورع وتقوى، أم أنهما صارا مجرد أفكار وأحلام لا علاقة لها بواقعنا اليوم. هل هذه الاخلاق نتيجة

فكر دينى معتدل يفهم طبيعة الجسد ويحاول التوصل إلى توازنه، أم أنها أفكار قبلية عصبية هى التى تحكم علاقة البنين بالبنات والآباء بالأبناء؟ 70% من أبناء وبنات مصر والعالم الإسلامى كله تحت عمر الثلاثين ونصفهم تقريباً من المراهقين، وقد صار الزواج فى سن مبكرة للرجال شبه مستحيل بسبب الحالة الاقتصادية. أى أن الغالبية العظمى من الشباب تعيش حياة جنسية غير صحية أثناء فورة الشباب وحتى مرحلة متقدمة من الرجولة. ولذلك أبعاد اجتماعية ونفسية خطيرة على مجتمعاتنا. وهناك علاقة وطيدة بين الكبت الجنسى والتطرف الدينى وظهور أشكال غريبة من العنف. فالجنس طاقة من طاقات الجسد، والمعروف عن الطاقة أنها تحتاج قنوات سليمة تتفرغ فيها، وإن لم تتوفر هذه القنوات انتهت تلك الطاقة إلى فوضى وعنف. نظرة بسيطة إلى شوارعنا وما يحدث فيها من تحرش وانفلات وازدواجية فى الأخلاق توضح أننا بحاجة لإعادة النظر فى مفهومنا عن الأعراف والقيم وعلاقتنا بالجنس!

نشرت الكاتبة التركية «سيران آتيش» فى عام 2009 كتاباً مثيراً للجدل بعنوان «الإسلام يحتاج ثورة جنسية» تدعى فيه أن علاقة المسلمين بالجنس هى أحد العوائق بينهم وبين الغرب، وبالتالى بينهم وبين التقدم، وقالت إن الأسرة المسلمة تهدر طاقات مهولة فى مراقبة بناتها وأولادها، لذا فإن هذه المجتمعات تحتاج ثورة جنسية كما حدث فى أوروبا فى ستينيات القرن الماضى كى تتحرر الطاقات المكبوتة وتتحرر المرأة من عبودية الرجل، على حد قولها. وقد جمعنى بتلك الكاتبة لقاء تليفزيونى فى يناير الماضى بألمانيا ودار النقاش حول الجنس والإسلام.
وقد اعترضتُ على مصطلح «الثورة الجنسية» كما تفهمه «آتيش»، وقلت إن هذا لا يمكن تطبيقه فى البلدان الإسلامية، لأن الثورة الجنسية فى أوروبا جاءت نتيجة ثورات عديدة سبقتها فى أوروبا مثل الثورة الصناعية التى جعلت المرأة عاملة، والثورة الفكرية التى حررت العقل، والثورة التكنولوجية التى اخترعت حبوب منع الحمل والغسالة الكهربائية، والتى أسهمت فى تحرير المرأة أكثر من أى شىء آخر. وقد استهلكت المجتمعات الإسلامية ثمرات تلك الثورات الأوروبية، ولكنها لم تنتج مثلها بعد، وهنا يكمن لب القضية.

لابد أن يعترف المسلمون أولاً أن هناك مرضاً فكرياً ومرضاً عضوياً فى قلب مجتمعاتهم، حتى يقبلوا حقيقة أن هناك دواء لهذا المرض. وهذا المرض له علاقة بنظرة المسلمين للعالم وعلاقتهم بالدين. والحرية الجنسية لن تؤدى إلى نتيجة إيجابية ما دام النظام الفكرى قائماً كما هو ومحبوساً فى فكر القبيلة وتقديس السلطة وعدم الخروج عن النص. لا بد أن يتعلم الآباء أنهم لن يستطيعوا فرض أسلوب حياتهم وتفكيرهم القديم على أبناء جيل «الفيس بوك». كما على الأبناء أن يفهموا أن الحرية لا تعنى هدم جميع الأسوار والعبث واستهلاك الملذات. ما نحتاجه هو إعادة تفاوض حول قضايا الدين والجنس ودور المرأة فى المجتمع، وعلى هذا التفاوض أن يخلو من التشنج والرجولة الكاذبة. وعلى مائدة التفاوض لا بد أن

يكون الرجل والمرأة ندين متكافئين. علينا أن نفهم أن استقلال الوطن يبدأ باستقلال الجسد. وعلينا أيضاً أن ندرك أن تحرير المرأة يتطلب أيضاً تحرير الرجل من أعباء الرجولة القاسية!

كنت أتنزه فى الصيف الماضى فى حديقة القرية الأوليمبية بمدينة ميونيخ. وكان العديد من الشباب يركضون وبعضهم يجلس تحت الأشجار ويشرب الخمور. وحين نزلت من هضبة الجبل الأوليمبى رأيت عائلة فهمت من لهجتها أنها سعودية. الزوج يرتدى «شورت» و«تى شيرت» وزوجته ترتدى عباءة سوداء وحجاباً وقفازا طويلا يغطيه ما يقرب من كيلوجرام من المجوهرات. وخلفهما كانت خادمتهما الآسيوية غير المحجبة تدفع أمامها طفلا فى عربة. لاحظت أن الزوج يراقب مؤخرة كل فتاة تمر أمامه راكضة بنشوة يصعب إخفاؤها، وكانت زوجته تراقبه ثم تنظر بحنق لكتلة اللحم التى يشتهيها زوجها ولكنها لا تنطق بكلمة. وبعد قليل توجهت بعض الخطوات للخلف وصارت تصرخ سباباً فى وجه خادمتها بلا سبب ملحوظ. بالطبع فإن هذه القصة ممكن أن تحدث مع أى عائلة سواء كانت مسلمة أم لا، ومع ذلك فهى توضح ديناميكية العائلة المسلمة وتفضح ازدواجية الأخلاق فيها بشكل واضح، كما تشرح علاقة المسلم المركبة بالغرب بين الافتتان وسوء الظن والحسرة.

وها هى امرأة سعودية لم تحتج أن تصبح بقرة فى سويسرا لتحصل على بعض الحرية، ولكنها حتى فى أوروبا لا تزال تصر على دورها التقليدى فتنتظر من الرجل أن يتكفل بجميع نفقاتها وأن يغدق عليها الهدايا والمجوهرات وأن يوفر لها خادمة، وفى سبيل ذلك تتخلى عن أبسط حقوقها. هذا هو بالضبط ما قصدته حين طالبت بتحرير الرجل من محنة الرجولة.

مأساة التعليم العربى..
أو محمد فى سوق الإلكترونيات

منذ الحادى عشر من سبتمبر عام 2001 ودول الخليج تتسابق فى تحديث أنظمتها التعليمية وتستخدم لذلك أكفأ الخبراء من أوروبا وأمرِيكا الشمالية. ولكن التحديث الذى توصل إليه الأشقاء العربٍ حتى الآن لم يتخطَ إلا تطوير تقنيات الفصل الدراسى وسبل التلقين وظل بعيداً عن تطوير الفكر وجوهر الثقافة. كان واضعو السياسات التعليمية العرب يرٍفضون أى تدخل فى محتوى الدرس من قِبل الخبراء الأجانب ويعتبرون ذلك خرقاً لسيادتهم. وقد فهم الخبراء ذلك وصاروا لا يزعجون أسيادهم بأفكار تنويرية واكتفوا بإرضائهم ببرامج كمبيوتر ملونة ومسلية. وهكذا أصبح تطوير التعليم مجرد طلاء خارجى لم يمس لب المشكلة التى يعانى منها العقل العربى.

يمكن تشبيه تطوير التعليم فى دول الخليج بتطوير سٍباق الإبل هناك، ففى دولة الإمارات أصبح الرجل الآلى يجلس فوق الجمل بدلاً من راعى الإبل، وصار يتحرك بريموت كنترول. ولكن إلى أين؟ البنايات الضٍخمة الحديثة وٍالمشاريع الثقافية التى يشتريها الخليجيون تحاول أن تعطى انطباعاً أن هناك انفتاحاً وٍحداثة. تنقل أبوظبى أعمال متحف اللوفر لأرضها، ولكن لا تنتج أبوظبى عملاً وحيداً يمكن مقارنته بأعمال اللوفر، لأن الروح التى نشأ فيها اللوفرٍ ممنوعة من دخول صحراء الخليج. لم يفهم الإخوة العرب بعد أن الحداثة لا تُشترى وأن الثقافة لا تُستهلك.

أثبتت لى زيارتان لمدينة دبى فى السنوات الأخيٍرة أن الانفتاح لا علاقة له بالضرورة بالرخاء الاقتصادى. فقد رأيت هناك نوعاً من أنواع التفرقة العنصرية ظننت أنها اختفت على الأقل من دولة الإمارات. فمن المعروف أن أكثرٍ من 80 % من سكان دبى من المهاجرين، وهم يعيشون فى أحياء منفصلة تماماً عن تلك التى يسكنها «سادتهم» الإماراتيون، وبعيدون كل البعد عن الرخاء الذى شهدته المدينة فى العقود الأخيرة. ولكن ليست هذه هى القضية.

كنت أسير ذات يوم فى شوارع دبى وأنا أرتدى جلباباً خليجياً، وفوجئتٍ بالمهاجرين الآسيويينً يتوقفون عن السير كلما رأونى ليفسحوا لى الطريق ظناً منهم أننى من سادتهم. وفى اليوم التالىٍ رأيت أحد السادة الحقيقيين ينزل غاضباً من سيارته الفارهة ويجذب إليه مهاجراً وصار يعنفه ويسبه وسأله عن صاحب عمله ووثيقة سفره كما لو كان رئيس الشرطة. كانت جناية الوافد الغريب أنه قطع على الشقيق العربى طريقه. وأثناء الزيارة الثانية رأيت مسؤول إدارة المرور فى التلفزيون وهو يشيد بحركة المرور فى المدينة، ثم ذكر فى نهاية تقريره أنه تم رصد خمس مخالفات فقط خلال هذا الأسبوعٍ وكان جميع المخالفين من المهاجرين الآسيويين وقد تم ترحيلهم إلى بلدانهم فوراً. هكذا بكل بساطة وكأنه يتحدث عن

صناديق بضاعة لا عن بشر سافروا وتغربوا وخدموا هذه المدينة حتى صارت مدينة.

على الرغم من الثراء الذى جلبه البترول لدول الخليج، فلم تنجح دولة واحدة منها فى خلقٍ مجتمٍع ديمقراطى يكون قدوة لباقى الدول العربية. لم تخلق واحدة منها مجتمعاً مدنياً يحترم كل مواطِنيه ويعاملهم بالتساوى مهما كانت أصولهم أو أعراقهم. بل على العكس تماماً، فقد أدى هذا الثراء إلى توطيد فكر القبيلة وإلى الغرور الثقافى. وعلى الرغم من أن دبى نجحت فى خلق بدائل اقتصادية للبترول بإنشاء مراكز سياحية ومالية، فإن المدينة كانت تبنى الكثير من المشاريع فوق الرمال، بكل ما تحمله الكلمة من معان. فما أن فرغت المدينة من بناء برج الخليفة العملاق الذى يعد أعلى بناء فى العالم حتى اكتشف الجميع أن المدينة مفلسة تماماً. وهذه نتيجة منطقية للبذخ والتبذير وعدم التخطيط. ولم تكن نتيجة هذا الإفلاس أن توقف أثرياء المدينة عن شراء السيارات الفارهة والأسلحة المتطورة وقضاء العطلات فى سويسرا وبيروت، بل قرر أولو الأمرِ إلغاء المشاريع الثقافية كافةً بلا استثناء وطرد جميع الخبراء القائمين عليها فوراً. ولم يكن إفلاس دبى درساً لدول الخليج الأخرىٍ للتقليل من البذخ، بل أعلن أحد الأمراء السعوديين بعد افتتاح برج الخليفة مباشرةً أنه يعتزم بناء برج أعلى منه.

والوضع فى أرض الحجاز بلا أشك أشد سوءًا من دبى. فكل محاولة للتغيير أو الانفتاح هناك يعرقلها حراس الدين الوهابيون. لذا فيبدو أن المِملكة ترغب فى التخلى عن الخبراء التربويين الغربيين ونراها الآن تتجه شرقاً، وتحاول استيراد النظام المدرسى اليابانى الذى يناسب العقلية العربية أكثر. النظام والانضباط واحترام السلطة هى أبرز ملامح فلسفة التعليم اليابانية. كما أن اليابان رغم تقدمها الاقتصادى لا تزال تعامل المرأة ككائن درجة ثانية؛ مما يوافق هوى الإخوة السعوديين. وكان أكثر ما بهر خبراء المملكة التربويين حين زاروا مدارس اليابان هو كيفية تنظيم الفصل الدراسى وانضباط الطلاب العسكرى وبدء الحصة الدراسية بتنظيف الطلاب الفصل، وانتهاء اليوم الدراسى بتنظيفهم دورات المياه.

مرة أخرىٍ يلعب الشكل لا الجوهر الدور الرئيسى فى تطوير التعليم سواء توجهنا شرقاً أو غرباً. وذلك لأن واضعى السياسات التعليمية ما زالوا لا يعلمون بالضبط ماذا يريدون من الطلاب وإلى أين يريدون الوصول بهم. فكل نظام عربى يريد تدريب طلابه كى يصيروا منتجين ومطيعين، ولكنه يخشىٍ من أن يعلمهم التفكير الحر والاستقلالية فى اتخاذ القرار؛ لأن فى ذلك خطراً على أصحاب السلطات، لأن أى مواطن ذكى سيبدأ فى التساؤل عن شرعية هؤلاء. ولكن ماذا يمكن أن ينجزه التعليم فى بلد تحكم شوارعه هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكرٍ، ويسيطر على مساجده أصحاب الفكر الوهابى المتزمت الذين تمولهم الدولة سنوياً بثلاثة مليارات دولار كى يطلقوا فتاوى لا يحتاجها أحد مثل تحريم التدخين

وحرمانية إرسال الزهور للمريض. هناك حالة من الفصام الثقافى والمعيشى فى المملكة: ثراء وبذخ ومنتجات غربية فى متناول الجميع، وأفكار متزمتة من القرون الوسطى تسيطر على المدارس والمساجد والشوارع. وهذا الفصام يؤدى إلى التشتت والكبت ثم إلى الإنفجار. ليس غريباً إذن أن يكون بين 19 ممن نفذوا أحداث سبتمبر 15 من السعودية وحدها.

ومن ناحية أخرى فإن النظام السعودى من أشد حلفاء الغرب اقتصادياً وعسكرياً. وفى حين تحارب قوات «الناتو» ضد تنظيم القاعدة فى جبال أفغانستان فإن قادة الغرب يتضرعون للنظام السعودى الذى يحمى الفكر المتعصب نفسه. بل ويسمحون ببناء أكاديميات الملك فهد فى بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية التى تنشر هذا الفكر المتشدد. من منا لا يتذكر الرئيس الأمريكى السابق بوش وهو يرقص ممسكاً بيد العاهل السعودى؟ أو أوباما الذى انحنى له إجلالاً وكأنه لا يعلم شيئاً عن انتهاك حقوق الإنسان فى المملكة. وأثناء خطابه فى القاهرة أثنى أوباما على جهود الملك عبد الله فى مجال حوار الأديان. ولكن أى حوار هذا؟ هل هناك حوار أديان فى المملكة نفسها بين الوهابيين والشيعة وأصحاب الديانات الأخرى؟ هل إرسال مبعوث إلى فندق خمس نجوم فى أوروبا يتحدث بكلام معسول عن التسامح والتعايش السلمى هو حوار الأديان فى حين أن أصحاب الديانات الأخرى مضطهدون فى المملكة؟!

يبدو أن حوار الأديان والثقافات أصبح تجارة رابحة فى هذا الزمان، فكل من يرغب فى الحصول على تمويل دولى أو على «برستيج» يلصق شعار حوار الحضارات على مشروعه. ولا نسمع فى تلك الحوارات سوى «الأسطوانات المشروخة» والكلام المنمق البعيد عن الواقع وعن المشكلات الحقيقية التى نعيشها. إنها مجرد حوارات ماركة «ابتسم عشان الصورة تطلع حلوة» وماركة «الضحك على الذقون». حتى فى المجال الأكاديمى صارت مثل هذه الحوارات عقيمة ومملة لأنها غير متوازنة ولا تهدف إلى نتائج ملموسة.

كنت أعمل منذ عدة أعوام فى أحد المعاهد التربوية بألمانيا المتخصصة فى أبحاث الكتاب المدرسى، وكانت وظيفتى الرئيسية هى بناء شبكة من الباحثين وصانعى السياسات التعليمية فى أوروبا والعالم العربى لإجراء أبحاث مشتركة حول صورة الذات وصورة الآخر فى الكتب المدرسية العربية والأوروبية. وكانت للمعهد الذى عملت فيه خبرات واسعة فى هذا المجال، فقد أخذ على عاتقه مهمة علاج جروح التاريخ بين ألمانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية عن طريق فهم تاريخ الصراع قبل طى صفحات الماضى. وكانت أهم إنجازات المعهد هى إنتاج كتاب تاريخ مشترك يُدرس فى ألمانيا وفرنسا على السواء، مما أسهم إسهاماً كبيراً فى التصالح بين أعداء الماضى. كما بدأ المعهد مشاريع مشابهة مع روسيا والتشيك وبولندا ودول البلقان، و جميعها نجحت فى تحقيق أهدافها.

ولكن عندما أراد المعهد أن يبدأ مشروعاً مشابهاً بين أوروبا والعالم العربى تعثرت الأمور. والسبب هو أن الجانب العربى كان غير متحمس وغير مستعد لأخذ خطوات للتقارب. وقد حضرت مؤتمرين مرتبطين بهذا المشروع أحدهما بالجامعة العربية فى القاهرة والآخر نظمته هيئة اليونسكو فى الرباط، وبدا من معظم المشاركين العرب أنهم غير مستعدين للتفاوض حول كتب التاريخ المدرسية لديهم، ولكن كان هدفهم الوحيد هو تحسين صورة الإسلام فى كتب الغرب. ومن ناحية أخرى أصروا على أن سردياتهم التاريخية جزء من هويتهم فلا يمكن تغييرها. وقد حاولت أن أشرح لبعضهم أن القصة ليست تحسين أو تشويه صُورة، ولكن محاولة لتفكيك السرديات التاريخية ومحاولة فهم الظروف التى كُتبت فيها، فالقصة التاريخية لا تخبرنا بالضرورة عن حقيقة ما حدث، ولكن تخبرنا عن كاتب القصة وظروفه ورغبته فى أن يوصل رسالة ما ورغبته فى ترسيخ صورة عدو ما. ولو حاولنا قراءة التاريخ بهذا الأسلوب لربما تمكنا من نزع فتيل العديد من القصص التاريخية التى لم تكن سوى أساطير أو مبالغة فى وصف ما حدث بالفعل.

وبعد ذلك بشهور كنت مسئولاً عن تنظيم أحد تلك المؤتمرات فى ألمانيا وقد حضره خبراء من مصر والأردن والمغرب واليمن وألمانيا وتركيا وإيطاليا. وقد فوجئت بركاكة معظم الأوراق التى قدمها الأساتذة العرب والتى لم تكن إلا دفاعاً عن الإسلام ولوماً على الغرب وبعيدة كل البعد عن الموضوعية والقواعد الأكاديمية. وقد بدأ الخبراء الأوروبيون يتهامسون حين راح أستاذ تربوى أردنى يمدح بلاده ويتغزل فى حكمة جلالة الملك وتسامح الكتب المدرسية الأردنية. وبعد نهاية اليوم الأول للمؤتمر اشتكى الأستاذ الأردنى أن الفندق الذى يقيم فيه أعضاء المؤتمر ثلاث نجوم فقط فى حين أنه معتاد على فنادق الخمس نجوم حين يحضر مؤتمرات فى بلدان عربية. سألته بسخرية أن يعطينى ورقة بنتائج تلك المؤتمرات العربية التى حضرها فتلعثم. وكان من بين الحضور أيضاً مدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس اسمه محمد، وكان أكثر ما يخافه هو أن يكون اللحم المقدم له فى المؤتمر غير مذبوح على الشريعة الإسلامية. وأثناء المبيت فى الفندق أيقظنى صراخ الشيخ محمد وهو يؤذن لصلاة الفجر، فقفزت من الفراش وحاولت إيقافه لكنه استمر فى الأذان. كان يعلم بالطبع أن غالبية النزلاء فى الفندق من غير المسلمين ولكنه لم يتوان عن إقلاقهم لأنه يعتبر ذلك حقه فى العبادة.

وفى اليوم التالى توجهنا إلى مطعم أردنى كى يأكل الضيوف لحماً حلالاً ولكن الشيخ محمد رفض الجلوس إلى المائدة لأن أحد أعضاء المؤتمر من غير المسلمين كان يشرب البيرة. الشخص نفسه الذى سلب حق غير المسلمين فى النوم بالأمس أراد سلب أحدهم حق شرب الخمور فى اليوم التالى، وكان يظن أن ذلك من صميم الإيمان. إن دور هذا الشخص هو تعليم المعلمين، وهو دور خطير ومهم، ولكنه كان يتعامل مع الجميع بتشنج وكان يتعامل مع الدين فقط كمجموعة من المحرمات

التى تقف عائقاً بينه وبين الآخرين. وبعد انتهاء المؤتمر توجهت إلى سوق الإلكترونيات لشراء بعض الأغراض ففوجئت بالشيخ محمد هناك، فجاء إلىّ مسرعاً وطلب منى أن أساعده فى شراء أحدث جهاز «آى بود» لكى يسجل عليه القرآن ويسمعه متى يريد. اخترت له أحدث الأجهزة وأمسكت به فى يدى قائلاً: «تعرف يا دكتور محمد.. الجهاز دا الناس اخترعوه فى أوروبا إزاى؟» لم يرد، فأكملت: «لأن كل واحد من حقه يشرب اللى هو عايزه. الجهاز دا عمره خمسميت سنة من الحرية!».. لم يفهم الأستاذ الجامعى كلمة واحدة مما قلت وهز رأسه متعجباً.

والد وفاء والأستاذ التربوى المتدين وأمثالهما من ملايين المصريين يشتكون من الأوضاع السياسية والاقتصادية ويتعجبون لماذا لا تتغير الأحوال. كلهم يشتكون من سوء النظام ولكن لا أحد منهم يتخيل أنه هو النظام. كلهم يعتقدون أن الديمقراطية مجرد صناديق اقتراع ونظام يُفرض من أعلى وحاكم صالح يحل جميع المشكلات بعصاه السحرية. لم يدرك هؤلاء أن الديمقراطية تجربة تبدأ فى المنزل حين يتفاهم الأب مع أبنائه والجار مع جيرانه عن طريق التفاوض لا عن طريق الصراخ وفرض وجهات النظر. فإذا لم يكن البيت والمدرسة والجامعة والجامع ديمقراطيين فلا جدوى من الأحزاب والانتخابات. كيف يمكن للديمقراطية أن تصير واقعاً فى حين أن الأب فى المنزل والمدرس فى المدرسة ورجل الشرطة فى الشارع يتصرفون كالآلهة؟! فاللغة التى يتحدث بها هؤلاء واللغة التى يفهمون بها العالم هى لغة السلطة والأوامر. كل هؤلاء سجناء فى حلقة مغلقة يغذيها العنف والقهر: الزعيم يقهر زبانيته والزبانية يقهرون الشعب. صاحب العمل يقهر الأجير والمدرس يقهر تلاميذه، والزوج يقهر زوجته، والزوجة تقهر أبناءها والأبناء يقهرون الحيوانات.

الجميع يصرخون «التعليم هو الحل»، ولكن أى تعليم؟ فمجرد تعليم القراءة والكتابة للطلاب لن يأتى بمعجزة، بل على العكس؛ فإن أنصاف المتعلمين هم أكثر خطراً على المجتمع من الأميين، لأنه من السهل السيطرة على عقولهم بكتب صفراء متطرفة تجعلهم يظنون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة. وما دام التعليم محبوساً فى الخطاب الدينى ومرهوناً بسياسات الحاكم وأهوائه فلن يخرج بنا من أزمتنا، بل سيساعد على تفاقمها. فلعلنا ما زلنا نذكر قصة مدرس الأسكندرية الذى كاد يفصل من عمله بسبب سؤال طرحه على طلابه «أذكر عكس كلمة مبارك!».. هذه القصة دليل على أن التعليم فى بلادنا سجين لأنه لا يعرف كلمة «عكس» ولا كلمة «بدائل»!

بين القبيلة والدين..
أو ما معنى كلمة «وطن»؟

تختلف كلمة «شعب» من حيث الأصل اللغوى ومن حيث المضمون عن مرادفتها الإنجليزية people والفرنسية peuple . فـ«الشعب» فى معجم «مختار الصحاح» هو: «ما تشعب من قبائل العرب والعجم، القبيلة الكبيرة، فِرقة». وكلمة «وطن» تعنى: «مرقد الغنم». والشىء نفسه ينطبق على كلمة «مجتمع» وهى كلمة حديثة على اللغة العربية تُرجمت عن الفرنسية societé بعد دخول الحملة الفرنسية مصر. ومع ذلك تختلف الكلمة العربية عن نظيرتها الفرنسية التى تعنى تلاقى أبناء الشعب، فى حين تعنى كلمة «مجتمع» فقط «مكان الاجتماع». وأصل «مجتمع» هو «جمع» وهو نفس أصل كلمتى جامع وجامعة وكلتاهما تعنى أيضاً مكان الاجتماع. نلاحظ أن التركيز فى الكلمات العربية دائماً ليس على البشر ودورهم ولكن على المكان. لو قارننا كلمة مجتمع العربية بنظيرتها اليابانية لوجدنا أن كلمة «شاكاى» تصف ديناميكية المجتمع اليابانى، فهى تعنى «كلمة الشعب على أرض صلبة».

ما أريد قوله هو أن مصطلحات المجتمع المدنى مثل «وطن» و«أمة» و«شعب» وغيرها ما زالت محبوسة إما فى لغة القبيلة أو فى الخطاب الدينى، وهذا عائق لتطوير ديناميكية المجتمع. ولذلك فإن مشروع الدولة ينتهى بنا دائماً إما لبحر رمال القبيلة المتحركة أو لأسوار الدولة الدينية المنيعة. وهذا يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامى الذى لم يعرف يوماً فصل الدين عن الدولة. فعلى عكس المسيحية التى عاشت ثلاثة قرون كدين لأقلية صغيرة قبل أن تصير الديانة الرسمية للدولة الرومانية، تولى الإسلام مقاليد الحكم بعد سنوات قليلة من بعثة الرسول. وقد ظهر المسيح على مسرح الأحداث فقط لفترة لم تتجاوز 30 شهراً لم يشغل فيها منصباً دينياً أو سياسياً، بينما استمرت رسالة محمد 23 عاماً شغل خلالها منصب النبى والمشرع والقائد العسكرى. كان النبى مسؤولاً عن جماعة كبيرة من البشر، وكان يجيب عن تساؤلاتهم فى شتى مجالات الحياة. وبينما قال المسيح: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» لم يستطع النبى محمد أن يقول شيئاً مماثلاً لأنه نفسه قد أصبح زعيماً للدولة أى بمقام «القيصر». لهذه الأسباب فإن فصل الدين عن السياسة فى الإسلام لا يزال شبه مستحيل حتى اليوم. وهذا يعطى الحجج للدعاة الإسلاميين، من أمثال وجدى غنيم، الذين يقولون إن الديمقراطية نجسة مثل لحم الخنزير، فى حين أن الشورى طاهرة مثل لحم الغنم.

وهكذا دخل أصحاب الفكر الأصولى من أمثال وجدى غنيم والحكام المتسلطين فى تحالف غير مكتوب ضد قوى الإصلاح، فإذا لم يتم إسكات المصلح بحجة أنه خائن للوطن وعميل للغرب، يهجم عليه غيلان الأصولية بتهمة السب فى الذات الإلهية أو إنكار ما عُلم من الدين بالضرورة. سعد الدين إبراهيم وأيمن نور ونوال

السعداوى ونصر أبو زيد ومحمد البرادعى هم بعض الأمثلة على معاناة المصلحين بين كماشة رجال السلطة ورجال الدين. حتى الدكتور أحمد زويل الذى لا يطمع فى أى منصب سياسى ولا يرغب إلا فى إصلاح التعليم وإنشاء مركز متقدم للبحث العلمى لم يسلم من هذا التحالف، ولا يزال يواجه العراقيل من كل الاتجاهات. فليست فقط القوى السياسية الرسمية هى التى تعوق تقدم البحث العلمى؛ بل أيضاً التزمّت الدينى الذى جعل كثيراً من الناس لا يثقون فى العلم، بل يشمتون فيه إذا أخفق، على حد تعبير الدكتور خالد منتصر حين تسقط مركبة فضائية أو يموت عالم جينات وراثية بالسرطان.

ترجم المسلمون فى القرون الوسطى أعمال فلاسفة اليونان القدماء وتعلموا فنون صناعة الورق من الصين واستوردوا نظام الأعداد العشرية من الهند. أما اليوم فإن دولة صغيرة مثل اليونان يسكنها ثمانية ملايين نسمة فقد صارت تترجم أكثر مما تترجمه جميع الدول العربية مجتمعة. حاول ابن رشد فى القرن الثانى عشر فصل الدين عن العلم حين تحدث عن الحقيقة المزدوجة قائلا إن العلم يستخدم أدوات العقل والمراقبة، والدين يعتمد على الإيمان الغيبى، فلا يجب أن يحاول أحدهما إثبات الآخر أو نفيه. قال إن للدين حقيقته وللعلم حقيقته فلا يجوز الخلط بين الحقيقتين. أما اليوم فقد أصبح رجال الدين يفتون فى أمور العلم والطب والهندسة، وصار الشعب يثق فى آراء شيوخ الفضائيات أكثر من ثقتهم فى الخبراء.

أصبحت قصقصة ريش الفكر والعلم هى أهم أدوات النظام كى ينعم بالاستمرارية. التعليم العربى فى جيوب السلاطين. والتغيير نائم فى أروقة المساجد والمدارس والبيوت والمخابز. كل المؤشرات تشير إلى تدهور وتدنٍّ شديد فى مجتمعاتنا، وليس هناك الكثير مما يدعو إلى الأمل. إلا أن باحثين من فرنسا لهما رأى آخر فى مستقبل العالم الإسلامى.

فى كتابهما «لقاء الحضارات» يصل كل من يوسف كورباج وإيمانويل تود إلى نتيجة أن معدلات الولادة تتراجع بوضوح فى جميع الدول الإسلامية؛ فى حين تزداد نسبة التعليم بين البنات والبنين. ففى حين كانت كل أم مسلمة تلد فى المعدل 6.8 طفل فى عام 1975، تراجع ذلك ليصبح فقط 3.7 طفل لكل أم فى 2005 . وفى بلدان مثل إيران وتونس تراجعت الولادة حتى وصلت إلى معدل نحو طفلين للأم الواحدة، وهو نفس المعدل الموجود فى فرنسا. ويقول الباحثان إن ذلك صاحبته طفرة فى تعليم البنات مما أدى إلى إحداث خلل فى توازن المجتمع وفهمه التقاليد فى معظم البلدان الإسلامية.

ويرى الباحثان أن تراجع المواليد وتطور التعليم هما السبب وراء الاضطرابات التى يشهدها العالم الإسلامى من حراك اجتماعى جديد وإرهاب وتطرف. ويصف الكاتبان الأزمة الإسلامية المعاصرة كأزمة مؤقتة سيخرج منها المسلمون أكثر

تقدماً ومدنية. وقد قارنا وضع العالم الإسلامى اليوم بأوروبا فى نهايات القرن التاسع عشر حين أدت سياسة «التعليم للجميع» فى بادئ الأمر إلى اضطرابات نفسية واجتماعية أدت بدورها عند البعض إلى موجات من العنف والانتحار. كما ذكرا أن الثوراتِ الإنجليزية والروسية جاءت بعد طفرة تعليمية فى تلك المجتمعاتِ. وأيضاً جاء الإصلاح التعليمى فى إندونيسيا بموجات عنف وحروب أهليةٍ أولاً قبل أن يأتى بثماره الإيجابية فيما بعد. تذهب الدراسة الفرنسية إلى أن شباب المسلمين اليوم فى طريقهم إلى الاستقلال عن آبائهم، لأنهم أكثر معرفة ودراية بالعالم منهم ، فصاروا لا يقبلون سلطتهم ويريدون البحث عن طرق وإجابات جديدة.

ولكن ما أغفله الباحثان هو عدم جودة وكفاءة التعليم الذى يتلقاه معظم الطلاب فى البلاد الإسلامية، وأن هذا التعليم لا يتخطى كونه أداة يستخدمها الحكام لشغل الطلاب عن الاضطرابات والسيطرة على فِكرهم. كما أن قنوات التعليم غير الرسمى فى المساجد والفضائيات أكثر تأثيراً على الطلاب ومحيطهم الأسرى.. وأن نَصِفَ المتعلم فريسة سهلة للمتطرفين وأصحاب الفكر الأحادى.

ولكن الكاتبين على حق فى وصفهما انسلاخ الشباب من التقاليد الأسرية القديمة وبحثهم عن أطر وأساليب جديدة لحياتهم. ومع ذلك فتبقى تلك الحلول الفردية محدودة وغير مؤثرة فى تركيبة المجتمع ككل. كما أن انسلاخ الشباب من النظم القديمة قد يؤدى إلى الفوضى إذا لم يجدوا بدائل راسخة فى مجتمعٍ مدنى ديمقراطى. فالهروب فى حد ذاته ليس فضيلة، وخصوصاً إذا كان هروباً من الرمضاء إلى النار. ففى كثير من الأحيان يفر الأبناء من فكر الأباء القديم وينتهى بهم المطاف فى أحضان الجماعات المتطرفة. أنا أتفهم تفاؤل الكاتبين الفرنسيين وأحييهما عليه. وهناك نقطة هامة تحسب لصالح إيمانويل تود بالذات؛ وهى أنه كان الكاتب الوحيد الذى تنبأ بسقوط الاتحاد السوفييتى فى وقت لم يكن أحد يتوقع ذلك على الإطلاق. ومع ذلك فإن الحقائق على أرض الواقع الإسلامى تنذر بمستقبل آخر!

بين التطرف والانفتاح..
أو المسلمون فى بلاد المهجر

«وُلد الإسلام غريباً وسيعود غريباً»، مقولة منسوبة للرسول يفسرها المهاجرون المسلمون فى الغرب على هواهم. يرى من يسمون أنفسهم بتيار الإسلام المستنير فيها أملاً فى أن إصلاح الفكر الإسلامى ومصالحته مع فكرة الدولة المدنية ستكون مهمة الجاليات المسلمة فى الغرب. البعض يرى أن احتكاك المسلمين بالمجتمعات الغربية قد يؤدى إلى غربلة التراث والتعجيل بعملية التنوير. ومن بين أنصار تلك الرؤية الدكتور طارق رمضان (سويسرى الجنسية وحفيد الشيخ حسن البنا). وعلى الرغم من أنه من المسلمين المحافظين فله آراء مستنيرة منها أن الإسلام يحتاج لإصلاحات جذرية، وأنه على المسلمين عدم التمسك بحَرفية النصوص بل عليهم العودة إلى مقاصد الشريعة وهى العدل والسلام. ويطالب رمضان الشباب المسلم فى أوروبا ألا يجعل الدين منافساً أو نافياً لهويتهم الأوروبية، ويحثهم على عدم معاداة المجتمع الذى يعيشون فيه، فمن وجهة نظر رمضان فإن المسلم الجيد هو أيضاً مواطن أوروبى جيد. كل تلك الأفكار طرحها رمضان فى كتاب هام بعنوان «أن تكون مسلماً أوروبياً».

وفى الولايات المتحدة حركة دينية يتزعمها التركى فتح الله جولان تحاول خلط التعليم الدينى بالمدنى وصار لها ملايين من الأنصار فى أكثر من مائة دولة. وشعار جماعة جولان هو التصالح مع الحداثة ودعم السلام العالمى، وهى تميل إلى الفكر الصوفى الأناضولى وترى فى جلال الدين الرومى أحد آبائها الروحيين. وتقوم تلك الحركة ببناء المدارس واختراق الجامعات، مما جعل بعض الدول تنظر إليها كجماعة متطرفة تستغل التعليم كمدخل لأذهان الطلاب.

وبعد أحداث سبتمبر 2001 حاولت الدول الغربية البحث عن منظمات إسلامية فى الغرب للحوار معها، فأدى ذلك إلى إنشاء العديد من المنظمات الدينية فى الغرب بشكل عشوائى، وتحاول كل واحدة منها اليوم إثبات أنها الممثل الشرعى للمسلمين. ففى ألمانيا وحدها ما يزيد على 30 منظمة إسلامية قلما تتفق على رأى، فهناك المجلس الإسلامى والمجلس المركزى للمسلمين والمجلس المركزى لمسلمى المغرب والمنظمة التركية والمنظمة البوسنية والإيرانية... إلخ. ومعظم تلك المنظمات تخلط الانتماء الدينى بالانتماء الوطنى وتعتبر محافظة، بل ويميل بعضها إلى التطرف، وتراقب أجهزة الأمن بعضها على أنها منظمات مناهضة للدستور مثل جماعة «ميلى جوروش» التركية.

وفى ألمانيا أسس وزير الداخلية مؤتمراً للإسلام دعا إليه جميع المنظمات الإسلامية، كما دعا عشرة خبراء مسلمين مستقلين، كنت واحداً منهم. ومهمة هذا المؤتمر هى إيجاد سبل لتحسين أوضاع المسلمين وتدريس الدين الإسلامى فى المدارس وتأهيل الأئمة فى الجامعات الألمانية. ولكن بعد أربعة أعوام من تأسيس

المؤتمر لا تزال المنظمات الإسلامية لا تجتمع على رأى ولا تبدى أى نوع من المرونة فى التفاوض، بل انسحب بعضها من المؤتمر تضامناً مع منظمة طردها وزير الداخلية من المؤتمر لتورطها فى أنشطة مالية إجرامية وعلاقتها بمنظمات متطرفة. حتى فى أوروبا يسيطر مفهوم القبيلة ومبدأ «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» على فكر بعض المسلمين.

ومن بين تلك المنظمات من يفسر مقولة «وُلد الإسلام غريباً وسيعود غريباً» على أن الإسلام سوف يكتسح أوروبا ويؤسلمها ثم يصدّر الثورة إلى جميع الدول الإسلامية فيما بعد. وفى أحد مساجد باريس سمعت خطيب الجمعة يفسر مقولة الرسول قائلاً:
«الحكام فى بلادنا كفار ولا يطبّقون شرع الله. والحكام هنا (فى أوروبا) أيضاً كفار ولا يطبقون شرع الله. ولكنهم هنا يسمحون لنا أن نعبد الله بحرية ولا يلقون بنا فى السجون أن نقول ربنا الله. لذا يا إخوانى فعلينا ألا ندخل فى صراعات ومشاكل مع الدولة هنا. لا بد أن نستغل هذا القدر من حرية الحركة والعقيدة فى إعادة تنظيم وتعبئة المسلمين. الإسلام قادم لا محالة يا إخوانى، تذكروا قول المولى عز وجل: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا). ولا تنسوا أن هجرة سيد الخلق أجمعين إلى المدينة المنورة هى التى قوّت شوكة المسلمين بعد أن كان الإسلام غريباً. ولكن الله صدق وعده ونصر جنده وعاد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحاً ومتوجاً بنصر الله. ونحن هنا فى هذا البلد أيضاً غرباء وضعفاء ولكننا عائدون عائدون....».

وعندما كان رجب طيب أردوجان عمدة لإسطنبول ألقى خطبة مشابهة تسببت فى حبسه قال فيها: «الديمقراطية ليست إلا قطاراً نركبه فقط حتى نصل إلى هدفنا. المساجد هى ثكناتنا العسكرية والمآذن هى رماحنا والقباب هى خوذاتنا».

وهنا بالضبط أرى مشكلة المهاجرين المسلمين فى أوروبا وأمريكا الشمالية. فبدلاً من أن يستغلوا الحرية التى يعيشون بها فى تحرير الفكر الإسلامى من أمراض السلطة وتنقيته من تأثير القبيلة، ثم يصدرونه لبلادهم، تجدهم يستوردون الفكر القديم المتجمد ويحاولون فرضه حتى على الأوروبيين. ويمكن مقارنة أوضاع مسلمى المهجر اليوم بأوضاع يهود أوروبا فى القرون الوسطى.. الكثيرون منهم يعيشون فى «جيتو» مغلق ومنعزل وفق تقاليد متزمتة عفا عليها الزمن بحجة الحفاظ على الهوية. وهنا يبرز دور الشريعة كوطن بلا أرض، وكدرع واقية من تأثير الآخرين.

لم يكتف أنصار الإسلام السياسى فى الغرب بفرض معايير أخلاقية صارمة تتصادم مع الأعراف الغربية بل صاروا يطالبون السلطات الغربية بتطبيق جزئى للشريعة الإسلامية لفض النزاعات العائلية والمدنية بين مسلمى المهجر دون تدخل

من القوانين الغربية. يعتقد بعضهم أن تطبيق «شريعة دايت» (دون رجم الزانية أو قطع يد السارق) سيكون بمثابةٍ «حصان طروادة» يدخل به المسلمون عقر دار القانون الأوروبى فيؤسلموه رويداً رويدا.

وبعض صناع القرار ورجال الدينٍ المسيحى فى الغرب على درجة من السذاجة تجعلهم يظنون أن هناك بالفعل شيئاً يسمى الشريعة الجزئية. هم لا يعلمون أنه لا توجد شرِيعة «منزوعة الدسم» فتطبيق الشريعة يمكن تشبيهه بالحمل: لا يمكن أن يكون «نُص نُص». وهى ليست مثل «بوفيه» مفتوح يمكنك الاختيار فيه بين وجبة نباتية وأخرى باللحم. فالشريعة كما يفهمها أصحاب الفكر المتشدد هى نظام متكامل يخترق كل مجالات الحياة ويرتبط بفكر سلطوى راسخ يقسم العالم لمؤمن وملحد ودار حرب ودار سلم.

ولكن بعض صناع القرار فى الغرب صاروا ينخدعون بـ«بروباجاندا» الإسلام السياسى التى تدعى أن الشريعة لا تتنافى مع القانون المدنى. لم يتساءل هؤلاء: إذا كان الأمر كذلك فلماذا يصر «الإسلاميون» على تطبيق الشريعة ولا يكتفون بالقانون المدنى. منذ عام 2004 ومسألة تطبيق ٍالشريعة فى كندا تثير آمال ومخاوف وغضب الكثيرين. بدأت الحملة بتقرير قُدم لمقاطعة أونتاريو ينصح بتطبيق الشريعة، وقد أيد هذا التقرير الحزب الديمقراطى الجديد (NPD) الذى كان يطمع فى كسب أصوات المسلمين فى المقاطعة والبالغ عددهم 400000 نسمة.

وكانت حكومة المقاطعة تدرس بجدية إمكانية تطبيق الشريعة وفقا لقانون قديم يسمح للأقليات اليهودية منذ 1991 باستخدام القانون اليهودى لفض نزاعات الجالية اليهودية فيما بينها. ولكن حملات ومظاهرات كثيرة نظمها علمانيون داخل وخارج كندا أدت إلى تراجع الحكومة عن تبنى مشروع الشريعة، وقد أسهم فى هذه المظاهرات أيضا العديد من المسلمين الذين قالوا إنهم فروا من أحكام الشريعة فى إيران وأفغانستان ونيجيريا والصومال والسودان ولا يريدون أن تطبق عليهم فى مجتمع علمانى، فقط لأنه مكتوب فى وثائق سفرهم أنهم من أصول إسلامية.

وفى 2006 صدر كتاب لوزير العدل الهولندى يتنبأ فيه بأن تطبيق الشريعة فى هولندا قد يكون مجرد مسألة وقت. وفى بداية العام الماضى فجر روان وليامز، أسقف كانتربرى، مفاجأة كبرى حين أعرب عن ترحيبه بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا جزئيا فى بريطانيا لمساعدة المسلمين على الاندماج فى المجتمع. وهذا الترحيب ليس فى حقيقته إلا نوعاً من اللامبالاة بل والعنصرية المقنعة. فبعد أن عجزت النظم الغربية عن إيجاد طرق لاندماج المسلمين فى بلدانهم يريدون أن يتركوهم فى عزلتهم ليتولوا هم شئون أنفسهم. وأمثال وليامز من رجال الدين لا ينصحون بتطبيق الشريعة من منطلق محبتهم للمسلمين وإنما ليمهدوا لحصول

الكنيسة أيضا على صلاحيات أكبر فى صناعة القرار وفى التشريع البريطانى. وقد نجحت تلك الجهود بالفعل، فنجد اليوم 85 محكمة من محاكم الشريعة تعمل فى بريطانيا فى نظام عدل موازٍ خاص بالمسلمين فقط. وعلى الجانب الآخر يزداد نفوذ اليمين المتطرف والمسيحيين الأصوليين فى المجتمع البريطانى وفى كل أوروبا.

هناك بوادر أمل بين صفوف بعض المسلمين الذين يظنون أن تطبيق الشريعة سيعلى من شأنهم ويحل مشكلاتهم التى لا حصر لها فى الغربة. ولو قرأ هؤلاء تاريخ يهود أوروبا لكانوا أكثر حذراً عندما يطالبون بالاستقلال القانونى. فعندما ضاقت أوروبا ذرعا باليهود فى القرون الوسطى منحوهم استقلالهم «الشرعى» ولم يتدخلوا فى شئونهم، ولكن ذلك لم يحل مشكلات اليهود ولم يقلل من أمراض المعاداة للسامية التى انتهت بمحرقة القرن العشرين.

المسلمون فى الغرب يعانون من مشكلات جمة لا علاقة لها بالقانون الذى يطبق عليهم. بل إن القانون الغربى (الذى يرى الكثير من المسلمين أنه وضعى كافر) هو أكبر الضمانات لحماية حقوقهم كأقلية وحرية عقيدتهم، فهو قانون لا يفرق بين دين وآخر ولا يرفع من شأن جماعة دون أخرى. فى حين أن مطالبة المسلمين بتطبيق الشريعة تقوى سطوة بعض المتطرفين المسيحيين وتعطيهم حجة قوية لإعادة الدين لساحة السياسة فى الغرب، مما قد يكون له عواقب وخيمة على المسلمين هناك. فلست أدرى لماذا يدير المسلمون ظهورهم للقانون المدنى ويطالبون بتطبيق شريعة لا يدرى أحد منهم أين تبدأ وأين تنتهى؟!

يبدو أن هناك علاقة وثيقة بين الشريعة والتغرب، فأول منابع الشريعة الإسلامية لم يولد فى مكة مهد الإسلام، وإنما بعد هجرة الرسول وأتباعه إلى المدينة، حيث كانت جاليات يهودية تعيش وفق القانون اليهودى «هالاخا» الذى يعنى أيضا «شريعة» أو «طريق». كلتا الشريعتين، الإسلامية واليهودية، تمثلان حالة من الحراك أو الانتقال من مكان إلى مكان، وكلتاهما تهدف إلى حماية جماعة ضعيفة على سفر.

بداية التشريعات الإسلامية فى المدينة جاءت مع فرض الصلاة فى اتجاه القدس وصيام يوم عاشوراء، وهو يتوافق مع أحد أعياد اليهود، ثم تحريم أكل لحم الخنزير. ولكن لاحقا وبعد أن حدث الشقاق بين الرسول واليهود جاءت تشريعات جديدة تبتعد فى أغراضها عن اليهود وأعمالهم، فقد تم تحريم الخمر والزنا والربا؛ وذلك أيضا لحماية المهاجرين من سطوة المال والجنس والمسكرات. الشريعة فى بدايتها لم تكن سوى محاولة للحد من تأثير «الآخر» على هوية المهاجرين الهشة الوليدة.

والتشريع اليهودى أيضا لم يولد فى مصر حيث كان العبرانيون يعيشون لقرون،

ولم يولد فى القدس حيث أقاموا معبدهم، وإنما تلقى موسى وصاياه العشر على جبل الطور فى سيناء فى طريق هجرته إلى الأرض المقدسة. ومنذ ميلادها والـ«هالاخا» يشكل حياة اليهود منذ اختطافهم إلى بابل وحتى هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين. وكان هذا القانون يلعب دور الوطن فى حياة اليهود المشتتين أثناء منفاهم فى بابل وفى أوروبا. صارت مراعاة القانون الإلهى وتذكر الماضى وأسطورة الرجوع إلى الوطن الأم أهم معالم الهوية اليهودية عبر ثلاثة آلاف سنة من الشتات.

وما دمنا بصدد مقارنة المهاجرين المسلمين بيهود أوروبا فى الماضى؛ فعلينا أن نتذكر حركة الإصلاح اليهودية الأوروبية «هاسكالا» التى أخرجت اليهود من «الجيتو» وساعدتهم على أن يصبحوا مواطنين أوروبيين. ولم تبدأ هذه الحركة بفكر علمانى معاد للدين، بل من وسط الفكر الدينى اليهودى، حيث قاد تلك الحركة عالم لاهوت وفيلسوف يهودى اسمه موسى مندلسون عاش فى برلين فى القرن الثامن عشر وبدأ ببناء المدارس لأبناء الطائفة اليهودية وقال إن من يتعلم التوراة عليه أيضاً أن يتعلم الفلسفة والعلوم البشرية. حث مندلسون وغيره من علماء وزعماء اليهود بنى جنسهم على تغيير مهنهم التقليدية كحرفيين ومتاجرين فى الأموال وتدريب أنفسهم للعمل كمدرسين وأطباء ومحامين بدلاً من ذلك. كما ألحوا عليهم بتغيير مظهرهم العام وصورتهم فى المجتمع كى لا يحس الأوروبيون أن اليهود يتعالون عليهم. وقد حل مندلسون أزمة الهوية لدى اليهود الألمان حين حثهم قائلا: «كونوا يهوداً فى بيوتكم وألمان فى الشوارع». وقد أدى ذلك إلى ثورة تعليمية وثقافية بين اليهود أدت إلى نبوغ أسماء كثيرة منهم فيما بعد فى شتى مجالات العلم والفلسفة والفن مثل مارك شاجال وألبرت أينشتاين وسيجموند فرويد وروزا لوكسمبورج. وهذا يشرح لماذا حصل 163 عالماً يهودياً على جائزة نوبل فى كل المجالات؛ على الرغم أن عدد يهود العالم لا يتجاوز 13 مليون شخص، فى حين حصل تسعة من المسلمين فقط على نفس الجائزة وعددهم يقترب من مليار ونصف المليار. واليوم؛ ورغم الاضطهاد الدامى الذى تعرض له اليهود فى أوروبا ما زالت جاليتهم تعيش هناك وتحترم القوانين ويحتل أبناؤها مناصب هامة فى الاقتصاد والإعلام رغم قلة عددهم.

يعيش فى أوروبا نحو 15 مليون مهاجر، معظمهم من الأتراك والبلاد العربية وباكستان، وهم فى كل البلدان أفقر السكان وأقلهم تعليماً، كما أن معدلات البطالة والجريمة بين المسلمين تزداد بشكل ملحوظ؛ مما يزيد من كراهية السكان الأصليين لهم يوماً بعد يوم. لا يبنى المسلمون المدارس الخاصة لأبنائهم كما فعل اليهود ولكنهم يبذلون قصارى جهدهم لبناء المساجد الفاخرة المزركشة التى تتكلف الملايين من تبرعات وهابية خليجية. وظاهرة بناء المساجد الفخمة هى ظاهرة جديدة فى أوروبا لم تكن موجودة حين كان جميع المسلمين فيها يتمتعون بعمل مناسب وحياة جيدة. ولكن بعدما تطور الاقتصاد الأوروبى وصار لا يعتمد على

الصناعات الثقيلة بل على العلوم وتكنولوجيا الإلكترونيات فقد الكثير من المسلمين عملهم لأنهم غير متعلمين، وزادت نسبة البطالة بشكل كبير بينهم. ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون تعويض فشلهم ببناء المساجد. أم أن القصة هى مجرد شغل لوقت فراغ الكثيرين مما لا شغل لهم؟ والتمويل الخليجى لتلك المساجد يعنى فى أغلب الأحيان أن خطبة الجمعة ومكتبة المسجد تتعهد بنشر الفكر الوهابى فيها.

وهناك عوامل عديدة تجعل من وجود المسلمين فى أوروبا مشكلة حقيقية لهم وللمجتمعات التى يعيشون فيها؛ فعلى الرغم من أن الكثير من المسلمين يعيشون على المعونات الاجتماعية التى تقدمها لهم الحكومات الأوروبية، فما زال الكثيرون منهم ينظرون إلى الأوروبيين ككفار يجب أسلمتهم، فلا هم يحترمون قوانين وعادات البلد المضيف، ولا هم يعودون لبلادهم ويبدأون هناك من جديد. وبسبب الدستور الأوروبى، لا تستطيع تلك الدول طرد المهاجرين المسلمين، حتى العاطلين منهم، لذلك فهم يكتفون بقوانين رمزية مثل حظر النقاب أو المآذن كى يخففوا من غضب مواطنيهم الذين يشعرون أن المسلمين يريدون أن يسرقوا أوطانهم منهم.

بالطبع لا يعانى المهاجرون المسلمون وحدهم هم من مشكلات فى الهوية والتأقلم فى أوروبا، فهناك مهاجرون كثيرون من أصول آسيوية يعيشون فى عزلة أيضاً، ولكن مثل هؤلاء المهاجرين لا يكدرون الأمن العام ولا يصرون على إظهار رموزهم الدينية وبناء دور العبادة فى وسط المدن كما يفعل المسلمون. كما أن نسبة المتعلمين بين هؤلاء المهاجرين أكبر بكثير من المسلمين ومعدل الجريمة بينهم أقل بكثير. والصحف الأوروبية تمتلئ بمثل هذه الأخبار يومياً: أب مسلم يقتل إبنته من أجل الشرف. سائق أتوبيس مسلم فى بريطانيا توقف عن قيادة الاتوبيس فجأة وركنه على جانب الطريق وبدأ فى الصلاة أمام المسافرين دون أن يشرح لهم أو يعتذر عن تأخرهم. عمال مصنع مسلمون فى فرنسا طالبوا بالحصول على وجبات خاصة بها لحم مذبوح على الطريقة الإسلامية، وبعد أن استجاب المصنع لمطلبهم، طالبوا بركن خاص فى مطعم المصنع بعيداً عن العمال الفرنسيين الذين يأكلون لحم الخنزير. مُدرسة حضانة مسلمة فى الدنمارك قدمت شكوى ضد إدارة الحضانة التى فصلتها عن العمل بعد ارتداء النقاب وأصرت على تلقين الأطفال دون أن يروا وجهها، وكان تبريرها لذلك أن هؤلاء الأطفال سوف يصيرون رجالاً يوماً ما ويجب ألا يتذكروا وجهها لأنه عورة.

هناك فهم خاطئ بين المهاجرين المسلمين لمعنى «الهوية» على أنها سور شائك لحماية أنفسهم من تأثير الغرب، وهذه نظرة تؤدى، مع مرور الوقت، إلى العزلة، والعزلة بدورها تقود إلى التطرف والعنف. وهناك ثلاثة أشكال من أشكال التطرف منتشرة بين المهاجرين المسلمين:

التطرف القبَلى: فمعظم المهاجرين المسلمين فى أوروبا جاءوا من مناطق ريفية وجبلية فى تركيا والمغرب وباكستان، فتراهم يصرون على أفكار وأساليب حياة

رجعية ربما لا يقبلها أحد فى إسطنبول والرباط وإسلام آباد. ويحاول الآباء فى تلك الأسر تضييق الخناق على أبنائهم وبناتهم حتى لا يختلطوا بالمجتمعات الأوروبية ويتأثروا بهم. وفى هذه الأوساط انتشر ما يسمى بـ«جرائم الشرف»، حيث يقتل الآباء بناتهم اللاتى تركن العائلة ليعشن فى استقلال. وفى ألمانيا وحدها سجلت أجهزة الأمن وقوع 96 حالة قتل من أجل الشرف بين المسلمين فى السنوات الأخيرة.

أما الشكل الثانى من أشكال التطرف فهو العنف الشبابى، حيث صار الشباب التركى والعربى يكوّنون عصابات إجرامية لتجارة المخدرات وتحصيل الإتاوات وتسهيل الدعارة. وهؤلاء الشباب هم ضحايا تضييق أسرهم المحافظة عليهم من ناحية، وضحايا أشكال التهميش والعنصرية التى بدأت تزداد فى أوروبا بعد أحداث سبتمبر من ناحية أخرى. ولكن العنصرية وحدها لا يمكن أن تكون المسئولة عن إجرام هؤلاء الشباب. بل إن تقصير آبائهم فى بناء جسور بينهم وبين المجتمع الذى يعيشون فيه وفشلهم فى توفير فرص لهم عن طريق التعليم، هى أهم أسباب أزمتهم. بل إن هؤلاء الشباب يستغلون هذه العنصرية كذريعة لتبرير فشلهم وإجرامهم. وفقدان القدوة الحسنة من أهم أسبابٍ انحرافٍ هؤلاء الشبابٍ، حيث إن معظم آبائهم عاطلين عن العمل مما يحدث خللاً أُسرياً لديهم وارتباكاً حول دور الرجل الشرقى فى الأسرة، مما يفقد الأب السيطرة على أبنائه من الرجال، فيحاولون تعويض ذلك بالتضييق على بناتهم أكثر وأكثر. وهكذا صار كل حى يعيش به نسبة كبيرة من المسلمين مشهوراً بجرائم القتل من أجل «الشرف» أو جرائم السطو والمخدرات.

أما الشكل الثالث فهو التطرف الدينى الذى زاد عن الحد فى الأحياء التى يسكن فيها المسلمون. فقد نجحت التنظيمات الإرهابية فى تجنيد مجموعة كبيرة من الشباب المسلم الذى يعيش فى أوروبا وقد نجح بعضهم فى تنفيذ عمليات إرهابية فى لندن ومدريد، فى حين تم القبض على العديد منهم قبل تفجير قنابلهم بقليل. وهنا لا يلعب الفقر ومستوى التعليم دوراً يذكر، فمعظم من قاموا بتنفيذ عمليات إرهابية كانوا من عائلات غنية أو فوق متوسطة وكانوا يتمتعون بتعليم جيد، ولكن الموضوع له علاقة بمشكلات الهوية وبفهم ضيق للدين.

ويتساءل الناس فى أوروبا «لماذا المسلمون بالذات؟» ففى أوروبا يعيش الملايين من المهاجرين من الجنسيات كافة، والكثير منهم قد يتعرض للعنصرية أو للبطالة أو مشكلات الهوية، ولكن لا يحاول أحد منهم أن يفجر نفسه فى أتوبيس يحمل أطفالاً وعجائز سوى المسلمين. وكثيرون من هؤلاء المهاجرين جاءوا من بلدان عانت من سياسات الولايات المتحدة وحروبها مثل فيتنام واليابان وشيلى وكوريا، ولكن وحدهم المسلمون هم الذين يردون بالإرهاب على ما يجرى فى العالم. والتفسير فى وجهة نظرى بسيط جداً، وهو أن المتطرفين المسلمين لا ينظرون إلى

غيرهم من الناس كبشر بل كأنعام لا تستحق الرحمة.

ولكن من الصعب أن نقول إن الدين الإسلامى هو السبب فى هذا التطرف، فلو نظرنا إلى قصص حياة الذين نفذوا الأعمال الإرهابية فى نيويورك ولندن ومدريد لوجدنا أنهم كانوا يعيشون حياة عبثية قبل أن يصيروا «متدينين». معظمهم كان يشرب الخمور ويتعاطى المخدرات وله علاقات نسائية قبل أن يتعرض لـ«الصحوة الكبرى». وعندما يعود هؤلاء للدين تجدهم مثل من يعتنق دينا جديدا، أى أشد تزمتا وصرامة من أصحاب الدين نفسه، فيحاولون أن يعوضوا أيام العصيان بأعمال صاخبة قد تُحسب لهم فى ميزان حسناتهم.

بالطبع لا يمكن أن ننظر لهؤلاء الإرهابيين كفئة تمثل مسلمى العالم، بل هم قِلة قليلة، ولكنهم مع ذلك يوضحون إلى أى درجات الفكر قد انحط المسلمون فى هذا العالم. إنهم يمثلون حالة الانفصام التى وصل إليها المسلمون الذين يشترون بضائع الغرب وأسلحته ويتداوون بأدويته ومع ذلك ينظرون إليه ككافر وعدو لله. إنهم مثال لخليط من الضعف المادى وقلة الحيلة والعنجهية الثقافية وفقدان البوصلة وعدم الثقة فى المستقبل، وهو خليط يعانى منه غالبية شباب المسلمين. وهذا الخليط يخلق التوتر فى داخل الشباب، فيحاول بعضهم حمل هذا التوتر إلى الخارج عن طريق العنف. ولم تكن أحداث سبتمبر وحدها نتيجة لهذا التوتر؛ بل جاءت بعد أحداث نيويورك أكثر 14000 عملية إرهابية وانتحارية راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء معظمهم من المسلمين أنفسهم فى شرم الشيخ وجربة وإسطنبول وبالى ودار السلام وكراتشى وكابل وبغداد.

ربما لن يكون الإرهاب فى صورته الحالية هو السبب المباشر فى سقوط العالم الإسلامى، ولكنه بلا شك يعبر عن حالة الخلل الفكرى والمادى التى تأخذ المسلمين إلى الهاوية.

خطاب ما بعد القرآن..
أو تغيير مفهوم التغيير

كان ياما كان، رجل أراد القفز بباراشوت فى ملعب كرة قدم، ولكن الرياح كانت شديدة فجرفته إلى مكان بعيد حيث سقط فوق شجرة عالية، وراح ينظر حوله فلم يرَ أحداً. وفجأة ظهر رجل محترم يرتدى ثياباً أنيقة فسأله العالق فوق الشجرة:
«لو تكرمت.. هل من الممكن أن تخبرنى أين أنا؟».
«طبعاً.. بكل سرور.. أنت فوق الشجرة.. وعليك أن تنزل.. ربنا معاك»، قالها الرجل الأنيق وهمَّ بالانصراف.
استوقفه رجل الباراشوت وسأله بغضب: «معذرة.. هل أنت من رجال الإصلاح المسلمين؟».
«نعم.. كيف عرفت ذلك؟»، تساءل الرجل الأنيق متعجباً.
«أولا.. أنت تخبرنى بما أعرف.. ثانيا لا تساعدنى فى محنتى.. وثالثاً أنا زهقت منك ومن أمثالك».

المصلحون فى بلادنا يرقصون على درج السلم منذ عقود من الزمان، لا يراهم أحد بالطوابق العليا ولا يسمعهم أحد بالحضيض. تراهم يغازلون الغرب ويريدون أن يضاجعوا الحداثة من دون عازل، ولكنهم مع ذلك يخشون من الحمل. وهكذا تراهم يخطون خطوة إلى الأمام واثنتين إلى الخلف فيوهموا الناس أن هناك حركة. يتحدث رجال الإصلاح السياسى عن تعديل وزارى أو دستورى أو انتخابات نزيهة وكأن ذلك هو لب مشكلاتنا، ويتحدث رجال الإصلاح الدينى عن تفسير القرآن حسب روح العصر ويظنون أن ذلك هو السبيل للتنوير. لا أحد يجرؤ على ترك الدستور والقرآن وراء ظهره والحديث عن حالة الفكر وأسلوب الحياة التى وصلنا إليهما. فالمشكلة ليست مشكلة نصوص ولا مشكلة قانون، ولكنها مشكلة العقول التى تقرأ النصوص والناس التى تضرب بالقوانين والدساتيرعرض الحائط. المشكلة هى حالة اللامبالاة التى أصابت غالبية المسلمين وعدم إيمانهم أن التغيير يبدأ بهم هم. المشكلة هى فى فهمنا للتغير. نعم.. فهمنا للتغيير هو الذى يحتاج التغيير، وتفسيرنا للإصلاح هو الذى يستوجب الإصلاح.

هناك حالة من الهوس بنصوص القرآن. الإرهابى يبرر أعماله بالقرآن، ومن ينتقد الإرهاب يرد عليه بالقرآن، ومن يريد أن يصلح أحوال المسلمين يستشهد بالقرآن، وكل ذلك يحمّل القرآن فوق طاقته، فهو كتاب عقيدة وليس دستوراً أو قانوناً. والقرآن أجاب عن أسئلة الحياة اليومية فى زمن الرسول، ولكنه غير قادر على إعطاء إجابات لكل أسئلة العصر الذى نعيش فيه. فكما يجب ألا نقلل قيمة القرآن كطاقة روحانية يحتاجها المؤمن ومبادئ عامة يستنير بها، يجب أيضاً ألا نقحمه فى كل صغيرة وكبيرة، وألا نعتبره كفانوس علاء الدين السحرى الذى يحل كل مشكلاتنا بحكة واحدة.

المستنيرون يقولون إننا نحتاج تفسيراً عصرياً للقرآن. ولكن كيف يكون هذا التفسير العصرى؟ أليس تفسير بن لادن للدين أيضاً تفسيراً عصرياً؟ ألم يبتعد بن لادن عن التفسير التقليدى الذى يمنع الثورة على الحاكم ويحرم قتل الأبرياء المدنيين؟ إذن فالتفسير العصرى لا يعنى بالضرورة التفسير الأفضل. حاول المصلحون منذ القرون الأولى للإسلام ومروراً بابن رشد وابن حزم وحتى محمد عبده وعلى عبد الرازق ونصر حامد أبو زيد وعبد الكريم سروج أن يفسروا القرآن حسب روح عصرهم، ولكن ذلك لم يأتِ بالإصلاح المرجو لا فى الفكر ولا فى السياسة.

أما آن الأوان أن نتجه اتجاهاً آخر إلى ما وراء القرآن والشريعة؟ ألا يجب أن نفتح كل الملفات الشائكة مرة واحدها ولا نغلقها قبل أن نحسم النقاش حولها جميعاً؟ ولكى نفعل ذلك لا بد أن نتفق أنه لا محرمات فى الفكر ولا أسوار شائكة على العقل، وأن كل مفكر سواء أخطأ أم أصاب لا بد أن يكون آمناً فى بدنه وعرضه وماله مهما كانت انتقاداته للدين أو للسلطة. لا بد أن يحدث تصالح بين الإسلام ونقد الإسلام، بل بين الإسلام والإلحاد. وهذا لا يعنى أن ندعو الناس للكفر؛ ولكن أن يعيش من يؤمن بجوار من لا يؤمن بسلام، وأن يقول كل منهما رأيه كمواطن دون أن يخشى أحد من بطش الآخر. هذه هى نواة أى مجتمع مدنى والخطوة الأولى للديمقراطية. وعلينا ألا ننسى أن الزنادقة وأصحاب الفكر المغاير هم من غيروا التاريخ لأنهم حركوا المياه الراكدة فى مستنقعات الفكر. فبدلاً من أن نخاف ممن نسميهم ملحدين علينا أن ندين لهم بالعرفان لأنهم استنفروا فينا الرغبة فى التفكير والبحث، حتى ولو كانوا على باطل. وما دام أن هذا الواقع غير قائم فإن كل مساعى الإصلاح سوف تنتهى إلى ما انتهت إليه نظيراتها فى التاريخ: إلى خانة الصفر.

نحن لا نحتاج إلى إصلاح، بل إلى إشهار إفلاس. نعم، لقد استنفذنا كل رصيدنا من بنك الحضارة وأكثرنا من الديون، وآن الأوان أن نشهر إفلاسنا؛ وإشهار الإفلاس يعنى عملية جرد نتخلى بها عن حقائب ثقيلة نحملها على ظهورنا فتعوق رحلتنا إلى المستقبل. نحتاج لإعادة تقييم حقائب «التراث» و«الأصالة» و«ثوابت الأمة» و«ما عُلم من الدين بالضرورة»، فننتقى منها ما هو بنّاء وهام، ونستغنى عما يخالف روح العصر ويحول بيننا وبين التفاعل مع العالم. علينا أن نقول وداعا لصور كثيرة مغلوطة نحتفظ بها فى أذهاننا لحضارتنا وللعالم من حولنا. علينا أن نقول وداعاً لأبطالنا من أمثال جمال عبد الناصر الذى وأد فرص الديمقراطية. وداعاً لكل من يخدرنا بفكر متعفن من فوق منابر السياسة أو على شاشات الفضائيات. علينا أن نودع منطق القبيلة ومفهومها القديم للشرف والكرامة ونستبدل به مفهوماً جديداً أكثر نفعاً وأقل عصبية. علينا أن نحرر مقرراتنا التعليمية من هذه المناهج الانفصامية التى تدعو إلى التسامح والتعددية والمواطنة من ناحية، وتقسم العالم إلى كافر ومؤمن من ناحية أخرى.

آن الأوان أن نشهر إفلاسنا، لعلنا نبدأ بداية جديدة على أسس جديدة بعيدة عن «النفخة الكذابة» والمشاعر المتقيحة. ربما سيتساءل أحد القراء: «وماذا سيبقى من الحضارة الإسلامية لو قلنا وداعاً لكل هذا؟ ماذا سيبقى إلا الأطلال؟» قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن حتى الأطلال يمكن أن تلعب دوراً إيجابياً لو أحسّنا استخدامها، مثل أطلال الحرب فى ميونيخ التى بنى بها الألمان هضبة جميلة. علّنا أيضاً نبنى هضبة من حطام حضارتنا ونتسلقها كى نلقى نظرة على العالم!

قد يكون النظام الذى نعيش فيه قاسياً وصارماً، ولكن مهما كانت صرامة النظام وضراوته فإن إمكانية الإفلات منه مطروحة، فحتى قوانين الفيزياء تقول إنه مهما كان النظام مغلقاً وجامداً فإن إمكانية تغيير مفاجئ تحدث بداخله لا تزال قائمة. عاش الفيلسوف «إبيكور» فى أثينا قبل 2300 عام فى نظام صارم للسياسة والفلسفة. ولكنه أراد أن يعلم تلامذته كيف يهربون من هذا النظام دون أن يتركوه. قال لهم إن الذرات تسير فى مسارات ثابتة وتسقط بطبيعتها فى الفضاء الواسع دائما إلى أسفل بفعل الجاذبية، وهذا قانون طبيعى لا يمكن لأحد أن يغيره. ولكن لو اتبعت كل الذرات هذا القانون لما كانت هناك حياة. فسرُّ وجود الأشياء هو أن بعض الذرات (دون سبب علمى معروف) تنحرف عن مسارها بقليل فتحتك بذرات أخرى فى داخل المسار فتتحد بها وتخلق كتلاً جديدة، وبالتالى طاقات جديدة هى التى تسببت فى تكوين الاشياء والجبال وكل العالم الحسى الذى نراه بأعيننا. وقد أطلق «إبيكور» اسم «كلينامن» على هذه العملية، وهى كلمة إغريقية معناها «الانحراف الطفيف»، وقال لتلامذته إن كل واحد منهم ممكن أن يكون «كلينامن».

هذا الانحراف الطفيف هو أيضاً إمكانية النجاة لنا. فإذا كان النظام الذى يحكمنا هو قانون الجاذبية والمسار الذى يحكم الذرات، فإن الذرات نفسها هى الأفراد. ولو قبل كل منا مساره ولم ينحرف عنه قيد أنملة لبقى الحال على ما هو عليه وما تغير شىء فينا ولا حولنا. فإذا كانت الغالبية العظمى من أبناء شعوبنا تريد أن تتبع المسار المكتوب وتقول: «يا عم أنا عايز أربّى عيالى».. فلا بد أن يكون هناك على الأقل أقلية نشطة تقول: «أنا عايز أكون كلينامن». على هذه الأقلية ألا تخاف من النظام وأن تحتك ببعضها وتتحد كى تولد طاقات جديدة لا يتوقعها النظام. نعم هذه الأقلية قادرة على أن تفقد النظام توازنه لو آمنت بقدراتها واستغلت جميع طاقاتها.

وفى مجتمعاتنا العديد من الأمثلة لهذا الـ«كلينامن»، فنظامنا العربى والإسلامى المغلق يستفز الكثيرين منا ويجبرهم على القفز من المسار. سعد الدين إبراهيم، وعبد الكريم سروج، ونصر أبو زيد، ونوال السعداوى، وعلاء الأسوانى، وإبراهيم عيسى، ووائل عباس.. أمثلة لهذه القفزات، ومثلهم الآلاف من الذين لا

نعرف أسماءهم ممن يخرجون على النظام ويحرجونه فى الداخل والخارج. هكذا تغير الاتحاد السوفييتى من الداخل قبل أن يسقط. كان المنشقون عن النظام يكتبون ويفضحون جرائمه فى الداخل والخارج. نعم لقد كانت قفزات منشقين من أمثال «سولجنستن» و«ساخاروف» و«سينوفييف» هى التى حركت المياه الراكدة وهزت توازن نظام ظن الكثيرون أنه باقٍ أبد الدهر. نعم، التغيير يبدأ بقفزة تحتاج لجرأة وتحتاج لتكاتف وتنسيق حتى لا تنتهى بفوضى أو بحرب أهلية. وقد أمدنا الغرب بهدية ثمينة يجب أن نستثمرها وهى «فيس بوك»، فمن الممكن أن نستغله لتوحيد الذرات المبعثرة وترتيب الخطوات.

كنت فى القاهرة يوم فازت مصر بكأس أفريقيا للمرة الثالثة على التوالى، ورأيت فى الشوارع الفرحة العارمة التى ملأت قلوب المصريين. نظرت فى عيون الشباب والشابات فرأيت الأمل وحب الحياة. رأيت رغبتهم فى أن يكونوا جزءًا من شىء كبير وجميل.. ولكن رأيت فيهم أيضاً ذرات مبعثرة لا يربطها شىء سوء حب وطن منهك. سألت نفسى ما الفرق بين هؤلاء والشباب المصرى فى عهد الفراعنة الذين خلقوا حضارة ما زلنا نعيش على ميراثها حتى اليوم؟ ألم تكن نفس الوجوه والابتسامات والطاقات، فماذا حدث؟ نظرت إلى الشباب المنتشى بنصر كرة القدم ليهرب من هزائم الوطن وتساءلت: ماذا يجب أن يحدث كى يقفز هؤلاء قفزة صحيحة خلاقة، ليست مثل قفزة عباس بن فرناس التى كسرت ساقيه؟

تساءلت هل وحدها الدكتاتورية هى التى تعوق بينهم وبين حلم الحرية والرخاء؟ أم أنها طبقة كثيفة من الطين هى التى تغلف عقولهم ووجدانهم فتحول بينهم وبين رؤية الحقيقة. أو ربما كان التخلى عن الأوهام والخدع البصرية أفضل لهؤلاء الشباب حتى من الوصول إلى الحقيقة. كل ما يحتاجه هؤلاء الشباب هو أن يفتحوا عقولهم وبصائرهم لمبادئ التنوير ويفهموا أن الحرية ليست هدية يمنحهم إياها قائد أو زعيم بل هى حق يُغتصب بالمعرفة والوعى وليس فقط بالمظاهرات والاعتصامات والصراخ. التنوير هو الضمان الوحيد أن تتم تعبئة الشعب لتغيير حقيقى مسالم لا ينتهى بنا إلى حرب أهلية. المدرسون والصحفيون وأئمة المساجد هم أهم أدوات هذه التعبئة. فلو تخلى المدرسون عن أسلوب التلقين السلطوى وغرسوا فى عقول طلابهم القدرة على التفكير الحر ونقد ذواتهم وحتى نقد المعلم نفسه، ولو تخلى الصحفيون عن أساليب الفرقعة ومداعبة العواطف فى التعامل مع تقاريرهم ومقالتهم وعرّفوا المواطنين حقوقهم وكيفية الحصول عليها، ولو تخلى الأئمة عن وعظهم بالقصص والحواديت وتركيزهم على المحرمات وعادوا إلى روح الدين وعقلانيته، لو نجح هؤلاء فى تعليم الناس أن ينتقدوا ذواتهم أولاً وألا يقبلوا أى شكل من أشكال الظلم حولهم، لتغيرت أحوال البلاد حتى قبل إجراء انتخابات نزيهة. من مقولات الشيخ الهضيبى التى تعجبنى: «أقيموا دولة الله فى قلوبكم، تقم على أرضكم». وبما أنى من أنصار الدولة المدنية فإنى أقول: «أقيموا الديمقراطية فى عقولكم وقلوبكم، تكن واقعاً على أرضكم»، فهذه هى الديمقراطية

الحقيقية التى لا يستطيع أحد أن يتحايل عليها أو يدمرها حتى ولو بانقلاب عسكرى. أما الديمقراطية التى تُفرض من أعلى فمن السهل إلغاؤها أو تعطيلها، فإن من يمتلك القوة لأن يمنحنا الديمقراطية يمتلك القوة نفسها ليحرمنا منها متى يشاء. التنوير هو الحل. التنوير هو أولى خطوات التغيير.

عرّف الفيلسوف الألمانى «إيمانويل كانط» التنوير بأنه التخلص من حالة التبعية التى يُسقِط فيها الإنسان نفسه بنفسه. وقال إن التبعية تنشأ حين يعطل المرء عقله ويعتمد على تعليمات وتفسيرات الآخرين فيتركهم يتحكمون فى قدره. ولكن لدينا فى العالم الإسلامى نظرة خاطئة عن حركات التنوير فنعتقد أنها تنكر الدين وتنادى بالإلحاد لأنها قلصت من سلطة الكنيسة فى أوروبا. فى الحقيقة، فقد كانت هناك أكثر من حركة تنوير فى أوروبا، وبعضها قام بثورات ضد الكنيسة مثل حركة التنوير الفرنسية، والبعض الآخر نشأ من داخل الكنيسة ذاتها مثل حركة التنوير الإسكندنافية. فقد كان قائد هذه الحركة رجل دين دنماركى يدعى «نيكولاى جروندفيج»، وقد حاول أن يستنبط التنوير من تعاليم المسيحية نفسها وقال إن دور الدين هو أن يساعد الإنسان على التصالح مع إنسانيته وأن يطور من نفسه لا أن يصير عبداً للطقوس والتعاليم الدينية. كان «جروندفيج» يقول للمصلين فى الكنيسة التى كان يعظ فيها: «كن بشراً أولاً ثم مسيحياً. كن مواطناً لهذا العالم!». أسس «جروندفيج» نقابات للعمال والفلاحين وأسس أول حزب سياسى كان هو الأساس فى التجربة الديمقراطية الدنماركية التى تتعلم منها أوروبا حتى اليوم.

إذن فنحن لسنا بحاجة لمن يشككون فى العقائد ويهاجمون الدين، ولكن إلى مصلحين من داخل المساجد والمؤسسات الدينية ومن خارجها.. مصلحين ليسوا عباداً للحروف والنصوص. نحتاج أئمة ممن درسوا العلوم والفلسفة كى يساعدوا الشباب على إعمال العقل ونقد أوضاعهم وكل من يتحكم فيهم حتى لو كان رجل دين. نحتاج نساءً يتفقهن فى الدين ويشرحنه لأبنائهن من وجهة نظر غير ذكورية. نحتاج أن نحترم كل إنسان سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو بهائياً، سنياً أو شيعياً أو علوياً. نحتاج أن نُعلى صوت العقل ونخرس صوت الخرافات. ولكن الإصلاح لا بد ألا يظل حبيساً للخطاب الدينى فقط، بل يجب أن يتوغل إلى قضايا المجتمع الأخرى التى لا علاقة لها بالدين.

لو كان الأمر بيدى لسألت مؤذنى المساجد أن يضيفوا جملة «إيمانويل كانط» الشهيرة إلى الآذان التى صارت شعار حركة التنوير «لا تخف من إعمال عقلك».

خمس دقائق قبل الثانية عشرة..
أو من سيوقف الانهيار؟

الحُلم شيء والواقع المر شيء آخر. والتنوير لن يأتِ للعالم الإسلامى بمقولة كانط «لا تخف من إعمال عقلك»، ولا بمقولة على بابا «افتح يا سمسم!» وأنا أعتقد - وأشعر بالمرارة حين أكتبها - أنه قبل الانفتاح سيأتى الانهيار أولاً، لأننا تأخرنا كثيراً عن ركب الأمم وضيعنا كل فرصة عرضها علينا التاريخ للتغيير واكتفينا بإخفاء قاذوراتنا تحت سجاد المنزل لقرون حتى صار البيت غير صالح للسكن. على المستوى الفكرى يزداد المتطرفون تطرفاً ويزداد المتحررون تحرراً وهذا ينذر بصراع دامٍ مثل الحروب الدينية التى مزقت أوروبا فى العصور الوسطى. أتوقع أن ما حدث فى أفغانستان والجزائر والسودان والصومال والعراق من حروب أهلية وإرهاب سيصير مصير معظم الدول الإسلامية التى لم تسرع بإصلاح سياستها وتعليمها فى الوقت المناسب. إن الطريق إلى الديمقراطية يمر بالأسلمة أولاً وهذا معبر صعب واختبار قد لا يتخطاه الكثيرون. فلم يعد لدينا وقت نفقده فى تجارب ومراهنات، فالساعة تقترب من الثانية عشرة، والأخطار تتربص بنا من كل الاتجاهات.

وهذه الصراعات الفكرية والعقائدية التى توغلت فى العالم الإسلامى سوف تزداد اشتعالاً بسبب مشكلات البيئة التى تواجهها المنطقة. فبعد ثلاثين عاماً ستجف آبار البترول، كما يتوقع الخبراء، وسينتهى أهم مصدر من دخل دول الخليج. وسيكون لذلك تبعات اقتصادية ليس فقط على الدول المصدرة للبترول وحدها؛ بل على ملايين العمال الأجانب الذين يعيشون هناك. سيعود هؤلاء العمال بأيد فارغة وعقول مسممة بالأفكار الوهابية لمواطنهم الأصلية فيكونون عالة عليها. كما ستؤثر التغيرات البيئية على معظم المنتجعات السياحية العربية؛ حيث ستختفى بعض الشواطئ تحت مياه البحر وستصبح مزارات أخرى غير جذابة بسبب ارتفاع درجة الحرارة فيها. كل ذلك تتوقعه أول دراسة عربية عن مستقبل البيئة فى العالم العربى التى تنذر بكارثة حقيقية تفوق كل التخيلات.

ففى الدراسة التى أجراها المنتدى العربى للبيئة والتنمية (AFED) ببيروت والتى نُشرت فى أواخر عام 2009 يتوقع الباحثون أن تصيب حالة من الجفاف الشديد منطقة الهلال الخصيب بين العراق وسوريا فى السنوات القادمة، فى حين ستختفى 12% من دلتا النيل تحت مياه البحر الأبيض المتوسط بسبب ارتفاع درجات الحرارة وذوبان الجليد قرب القطب الشمالى. كما سيؤدى ارتفاع منسوب المياه فى البحر والتصحر والتجريف إلى خسارة المناطق العربية مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ستكون نتيجتها نقص المواد الغذائية بنسبة 50% فى البلاد العربية خلال الخمسين عاماً المقبلة. وفى مصر بالتحديد سيعانى السكان من نقص فى مياه الشرب والمواد الغذائية وتراجع فى موارد السياحة وقناة السويس بسبب

التغيرات البيئية مع زيادة مستمرة فى عدد السكان ونسبة التصحر مما ينذر بكارثة.

والسؤال الآن: كيف يمكن للاقتصاد العربى أن يتعامل مع كل تلك المتغيرات؟ كيف يمكن للدول التى عاشت تاريخها كله تعتمد على الموارد الطبيعية أن تعيش بعد أن تفقد تلك الموارد. أين البدائل الاقتصادية للبترول والسياحة والزراعة؟ لا بد للاقتصاد العربى أن يعيد اختراع نفسه فى أقصر فترة ممكنة إن كان يريد أن يواجه تلك الكارثة. ولكننا نحتاج تكنولوجيا جبارة وتقنيات عالية وجموعاً من الشباب المؤهل، وكل ذلك غير متوفر لدينا بسبب فقر التعليم وتأخر البحث العلمى. كما أن حكامنا يعيشون بمبدأ «أنا.. ومن بعدى الطوفان» ولا يخططون للمستقبل. لذا فإن السقوط الفكرى والمعنوى للحضارة العربية الإسلامية سوف يؤدى إلى سقوط مادى واجتماعى وسياسى إذا لم نغير ما بأنفسنا بأسرع ما يمكن.

ومن الجدير بالذكر أن المصائب البيئية ليست سيناريو مستقبلياً، بل واقعاً نشهده منذ سنوات من تصحر وجفاف. وسوف تتسبب هذه الظواهر البيئية فى حروب أهلية وإقليمية عربية كما يتوقع عالم البيئة الألمانى «هارالد فيلتسر» فى كتابه «حروب البيئة.. من أجل ماذا سيقتل الناس فى القرن الحادى والعشرين»، ويقول «فيلتسر» إن مأساة دارفور ليست مأساة عرقية كما يصفها الكثيرون ولكنها نتيجة حتمية لمشكلات البيئة التى لم ينتبه لها أحد فى السودان. فيقول الخبير البيئى إن شمال السودان فقد فى الأربعين عاماً الماضية ما يزيد على 100 كيلومتر مربع من الأراضى الزراعية بسبب التصحر، مما سبب المجاعات، وكان هذا هو السبب الذى قاد لزحف الشمال نحو الجنوب الخصيب؛ مما أدى إلى الحرب الأهلية التى راح ضحيتها مئات الآلاف وتشرد بسببها خمسة ملايين نسمة من أبناء السودان. كما يتوقع تقرير المنتدى العربى للبيئة أن تتعرض منطقة الخليج لجفاف شديد يهدد الكويت والسعودية والإمارات بشكل مخيف، كما ستجف مياه نهر الأردن بصورة تجعل الصراع بين إسرائيل وجيرانها العرب يدخل فى مرحلة حرجة جديدة. الحروب من أجل كِسرة خبز ومن أجل رشفة ماء هو ما يتوقعه لنا خبراء البيئة المحليون والدوليون فى المستقبل القريب. فهل أعددنا العدة لذلك أم أننا ما زلنا ننظر إلى الأبحاث العلمية كخرافات أو كضرب من ضروب قراءة الكف؟

ماذا نفعل لمواجهة الكوارث القادمة؟ ما زلنا نستهلك كل شيء بنهم ونغتصب البيئة اغتصاباً. ما زال أثرياؤنا يشترون السيارات الفارهة التى لا ترحم البيئة. ما زلنا نحطم الشواطئ بالفنادق الشاهقة وننسف المساحات الخضراء. وقد افتتح المنتدى العربى للبيئة مؤتمره ببيروت بلافتة استغاثة «نحن لا نستطيع أن نشرب النفط»، حيث إن التقرير طالب دول الخليج بتقليل إنتاج النفط وتطوير بدائل أخرى للطاقة مثل الطاقة الشمسية. ولكن دول الخليج وبخاصة السعودية رفضت ذلك.

ومن المثير للسخرية أن دولاً مثل ألمانيا أصبحت رائدة فى إنتاج واستخدام الطاقة الشمسية رغم أن الأيام التى تسطع فيها الشمس فى ألمانيا على مدار العام معدودة. أما نحن فى بلاد الشمس فننتظر أن يعبئ لنا الألمان الشمس فى زجاجات كى نشتريها منهم بأبهظ الأثمان. ويشارك فى مشروع «ديزرتيك» الذى ينوى إنشاء محطات طاقة شمسية عملاقة فى شمال أفريقيا لنقل الطاقة عبر البحر المتوسط إلى أوروبا العديد من الشركات العالمية، ولكن لا توجد بينها شركة عربية واحدة. مرةً أخرى سنقف فى انتظار القطار ثم نكتشف بعد فوات الأوان أنه مر علينا ونحن نائمين على الرصيف.

الصحراء والبشر والجهل والفقر والتصحر فى زيادة مستمرة، والبترول والموارد الطبيعية والغذائية ومياه الشرب فى نقصان سريع. الأصولية والطائفية تفترس العقول مثل السرطان، وكراهية كل ما هو غريب وجديد تزداد يوما بعد يوم. كل ذلك يخلق خليطاً من الديناميت يهدد بتفجير العالم الإسلامى.

هناك قانونان يحكمان الطبيعة منذ بداية العالم: المرونة والتنوع. وكل من يخالف هذين القانونين ينتهى به المطاف إلى الفناء. والعالم الإسلامى عاند هذين القانونين طويلاً فاستحق الفناء. كل ذلك يقودنى إلى نبوءة قاسية لا أحب أن أنطق بها وهى أن العالم الإسلامى سيسقط وسيُسقِط معه العالم كله فى كارثة مروعة. وكما قال اليابانى فوكوزاوا يوكويتشى «وداعاً آسيا» سيقول المسلمون قريباً «وداعاً أيها الشرق»، ولكنه لن يكون وداعاً للتخلف والأصولية، بل سيكون وداعاً للأوطان. ستفقد الدولة سيطرتها على المواطنين وسيفقد المواطنون السيطرة على أنفسهم. سيعم الجوع والفوضى والعنف وسيسود قانون الغاب. وستكون النتيجة هى هروب الناس إلى أوروبا.. كعبة يأسنا وميناء رجائنا الأخير.. أوروبا، الكافرة السافرة التى نكرهها ونحلم بها ونحتقرها ولا نستغنى عنها، ستكون بوابة أملنا الوحيدة. ستمتلئ قوارب «النجاة» باللاجئين فيغرق منهم من يغرق ويصل من يصل. وستقف أوروبا أمام خيارين أسهلهما صعب: فإما أن تفتح بواباتها للاجئين وتدمر بذلك اقتصادها، أو تغرقهم على شواطئها فتخسر مصداقيتها. مرةً أخرى ستتصادم خطايا الشرق بخطايا الغرب فى لقاء جديد غير متكافئ. وعندها ربما ستتحقق نبوءة «أوزفالد شبنجلر» بسقوط الغرب أيضاً، لأن سقوط الشرق لو حدث سيجر معه الغرب إلى الحضيض، فهذا هو الوجه الآخر لميدالية العولمة.

ستحترق الغابة وسيصعد الدخان إلى السماء. ولكن مع ذلك ستنمو أشجار جديدة من الجذور المحترقة يوماً ما. الحضارات تأتى وتذهب مثل قلعة يبنيها الأطفال من الرمال على الشاطئ. ولكن البحر سيبقى، وستواصل أمواجه المجيء والذهاب سواء كانت هناك قلاع على الشاطئ أم لا!

المحتوى

مقدمة.. أو الشرق يحترق
ديناميت اسمهُ التاريخ.. أو أرجوك لا تأخذ عدوى منى!
أصحاب الكهف.. أو مشكلة من لا يرى إلا ظله
متى بدأ الخلل؟.. أو الوداع الطويل للحضارة الإسلامية
الحداثة والمُحدثة.. أو طريق المسلمين الشائك نحو التنوير
تجارة الغضب.. أو أنا مسلم إذن أنا زعلان
معركة الرسوم المسيئة للرسول.. أو حوار مع عدو
لا ثورة ولا يحزنون.. أو الإله.. الحاكم.. الوطن
زنا محارم ثقافى.. أو مدينة حرة بلا حرية
أقفاص ودواجن.. أو حكاية بنت اسمها وفاء
الخوف من الجسد.. أو هل يحتاج الإسلام ثورة جنسية؟
مأساة التعليم العربى.. أو محمد فى سوق الإلكترونيات
بين القبيلة والدين.. أو ما معنى كلمة «وطن»؟
بين التطرف والانفتاح.. أو المسلمون فى بلاد المهجر
خطاب ما بعد القرآن.. أو تغيير مفهوم التغيير
خمس دقائق قبل الثانية عشرة.. أو من سيوقف الانهيار؟